

مِنْ أَسْرَارِ الْمُعْجَايِزِ فِي سَبَقِ الْفَاصِلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

بقلم الدكتور
محمد الفوسين الشفيري

حقوق الطبع محفوظة للأولف

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

مِنْ أَسْرَارِ الْمُخَايَرَةِ فِي نَسِيقِ الْفَاصِلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

بِقَامِ الدُّكْتُورِ
يَحْيَى الْفَصِيحِ الْوَهَّابِيِّ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا أحسب أن تكافؤ فنون البلاغة تعرض لظلال الرأي عند تطبيقه على النظم الكريم، كما تعرض له التصنع، فمن ذلك أن في رقصه، تنزيلها للقرآن عن شائبة نمك، أو إجحاف بالمعنى، ومن مفرد في القول باحتفاء القرآن به، لدرجة أن يغير مواقع الألفاظ وهياكلها، ويعمد إلى الزيادة والنقص فيها لتحقيق هذا المطلب.

وبين المغالاة في الرفض، والجموح في الإثبات، يقع إعجاز النظم الحكيم. هذا الإعجاز الذي يتجلى في الموازنة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون، فإذا نظرت إلى ما فيه من تناسب الفصول والمقاطع، خلت أنه يعتمد إليه ويتوكل به، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ، وفقا لتوابع المعاني وحركاتها في الأذهان، فمن أى جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز.

والبحث يعالج جموح القول بالمغايرة في نسق الألفاظ وعيا للتناسب، ويتتبع أبرز شواهد في الذكر الحكيم، بحثا عما وراءها من أسرار تتعلق بمعاني الكلام ومراميه، دون التهورين من شأن هذا التناسب، وأثره في استمالة الأسماع والقلوب، ذلك أن تمام التحدى في لغة شاعرة أن يجتمع في النظم المتعجز حسن وقع المعنى في النفس، وجمال الإيقاع في السمع.

ولنا في الفاصلة وقات آخر، بحثا عن أسرار المغايرة في الصمغ، وما يقع فيها من إيجاز وإطناب. والله أسأل أن يوفقني إلى إتمام ما بدأته، ويعينني على فهم أسرار كتابه.

القاهرة - أكتوبر ١٩٩٣ م

توطئة :

من عجب أن يزعم زاعم أن القرآن يقصد إلى المغايرة في نظمه بالتقديم والتأخير رعاية للفاصلة، أو حفاظا على السجع، في الوقت الذي يرى فيه النقاد ضرورة اتئلاف اللفظ والوزن في الشعر، ويعيون منه ماخرج على غير النسق المعمود في ترتيب الكلام لتصحيح الوزن، يقول قدامة في كتابه « نقد الشعر » تحت عنوان « اتئلاف اللفظ والوزن » : (وهو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر مستقيمة كما بنيت ، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلفة منها ، وهي الأقوال ، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها) (١) .

فإذا كان التقديم والتأخير لتصحيح الوزن عيبا في الشعر ، وهو أمس حاجة إلى التساهل ، بحكم ما فيه من التزام الأوزان والقوافي ، فإن القول به مراعاة لفاصلة أعيب ، لما هو مقرر في عرف هذا اللسان من أنه يباح في النظم ما لا يباح في النثر ، لأن الناظم محكوم بقيدين : الوزن والقافية ، والنائر محكوم بقيد القافية وحده ، وحتى هذا القيد بإمكانه الخروج عنه بتنويع القوافي في سجمه .

إننا لو نظرنا إلى القرآن على أنه نص أدبي نثرى ، وأجرينا عليه قواعد النقد العربي ، ومنها هذا الأصل الذي أشار إليه قدامة لحكمنا عليه بعدم

(١) نقد الشعر ص ١٦٥ .

تمكن فواصله ، لاضطرابه إلى التقديم والتأخير حفاظا عليها طبقا لهذا الزعم،
فأياك بنص معجز ١٢

لقد استهجن الزمخشري مثل هذا القول فيما نقله السيوطي عن الكشاف
القديم : (لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها ، إلا مع بقاء المعاني على
سردها ، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتتامة ، فأما أن تهمل
المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور إلى مؤداه ، فليس من قبيل
البلاغة) (١) .

وبالرغم من أن السيوطي نقل هذا عن الكشاف ، فإنه نقل في مقابله
عن شمس الدين بن الصائغ نصا طويلا ، يستدل فيه على أن القرآن يرتكب
مخالفة الأصول مراعاة للتناسب بين الفواصل ، وأحصى من ذلك ثيفا وأربعين
موضوعا ، ثمانية منها قدم فيها ما حقه التأخير (٢) .

ثم توسع المفسرون حتى أحالوا معظم التقديم في الفواصل إلى هذا
الغرض وحده ، وبمثله قال بعض أهل البيان . حتى إن ابن الأثير لم يجد حرجا
في تغيير السبك ، ومخالفة الأصل في ترتيب الألفاظ ، من أجل حسن النظم
السجعي ، فقال رداً على الزمخشري ، الذي ذهب إلى أن تقديم المفعول
للاختصاص في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين (٣) » ، قال ابن الأثير :
(فإنه لم يقدم المفعول فيه للاختصاص ، وإنما قدم لمكان نظم الكلام ، لأنه
لو قال : نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله « إياك نعبد وإياك
لستعين » . ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن

(١) الإتيان في صرم القرآن ١٠٥/٢

(٢) السابق ٩٩/٢

(٣) سورة الفاتحة ٤

الرحيم مالك يوم الدين ، فجاء بعد ذلك قوله «إياك نعبد وإياك نستعين»
وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى الذى هو على حرف النون ، ولو قال :
نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن (١) .

إن يقيننا بجمال التوافق في المقاطع وأثره في استهالة الأسماع والقلوب
لا يحملنا على قبول القول بأن (لهذه الموسيقية أثرها في النفس ، وأسلوب
القرآن فيه هذه الموسيقى ، ومن أجلها حدث في نظم الآى ما يجعل هذه
المناسبة أمرا مرعيا) (٢) فلا شك أن هذه المناسبة أمر مرعى لكن تغيير نظم
الآى من أجلها ، إنما هو ضرب من الضرورات نجل القرآن عن مثله .

وإذا كان الفراء من قبل جاول أن يربط بين مراعاة الفواصل في القرآن
وتناسب القوافي في الشعر ، واستباح تغيير النظم في رؤوس الآى لتحقيق
هذا التناسب ، حتى أجاز العدول عن الواحد إلى الثنائية في قوله تعالى :
«ولمن خاف مقام ربه جنتان» على أن المراد جنة واحدة وعدل عنه لمشكلة
رؤوس الآى ، فإنه قد وجد من تصدى له وقسا في الرد عليه على ما نقله
السيوطى : (وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه ، وقال : إنما يجوز في
رؤوس الآى زيادة هاء السكت ، أو الألف ، أو حذف همز ، أو حرف ،
فأما أن يكون الله وعبد بجنيتين فتجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآى
معاذ الله) (٣) .

وأعجب من رأى الفراء في استباحته تغيير النظم للشاكلة بين المقاطع ،
تفسير الدكتور محمد زغلول سلام بأنه ربط بين أوزان القرآن وأوزان
الشعر ، وكأن الفراء يعيد إلى الأذهان ماتنبه إليه العرب قديما من المقارنة

(١) المثل السائر ٢/٢١٢

(٢) من بلاغة القرآن ص ٨٧

(٣) الإقتان ٢/١٠٠

بين وزن القرآن ووزن الشعر . يقول : (وقديما تليبه العرب إلى وزن القرآن فقارنوه بوزن الشعر ، وإيقاع سجع اليكبان ، ولكن هذه الملاحظات سكتت لسبب أو لآخر ، ولعل هذا السكوت عن البحث في نظم القرآن من هذه الناحية يرجع إلى انصراف الناس إلى المعاني ، وما تحمل من تشريع وعقيدة ، وهو جل اهتمامهم في ذلك الوقت ، ومهما يكن من شيء فالجديد في كتاب الفراء ، والجدير بالاهتمام أنه لاحظ هذا النسق الصوتي ، وحاول أن يتبعه ، وزاه في ملاحظاته التي أوردها مدركا تماما لوزن القرآن ، مدركا الغاية التي يعمد إليها في التزام وزن بعينه . وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم وتوافق الفواصل في أواخر الآيات . وإذا تسرعى انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر ، وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيدا ، بل يريد أن يقول : إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات . ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية ومراجعة رؤوس الآيات (١) .

لا أعرف أن الفراء كان يقارن بين وزن القرآن ووزن الشعر ، وإن كان يرى أنه يستباح في رؤوس الآي ما لا يستباح في غيرها ، كما يستباح في قوافي الشعر ما لا يستباح في حشوه ، وتلك خاصية تتعلق بالفواصل وحدها دون سائر الآي .

ولا أعرف أن الفراء علل عدول القرآن عن لفظة إلى أخرى لاستقامة الوزن في غير رؤوس الآي ، حتى يقال : إنه كان « في ملاحظاته التي أوردها مدركا تماما لوزن القرآن ، مدركا الغاية التي يعمد إليها في التزام وزن بعينه ، بل كان تعبيره فيها يريد أنه جري على غير الأصل : « لمثبا كلة رؤوس الآي ،

(١) أثر القرآن في ظهور النهج العربي ص ٦١

كما تراه في سور: الفجر (١)، والشمس (٢)، والضحى (٣)، والعلق (٤)، والزلزلة (٥)، والمعاديات (٦). وحين يستشهد بوجود مثل هذه المغايرة في الشعر، كان يقابل بين القوافي والفواصل، لا بين وزن ووزن. مثال ذلك ما قاله في ثنية الجنة من قوله تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»: (وقد يكون في العربية جنة ثنيتها العرب في أشعارها. أنشدني بعضهم:

وَمَمَّيْنِ قَدَّزَيْنِ مَرَّتَيْنِ قَطَعْتَهُ بِالْأَمِّ لَا يَا سَمَّيْنِ

يريد: مهما وسمتا واحداً. وأنشدني آخر:

يسعى بكيداء ولهذمين قد جعل الأرتاة جنتين

وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان، فيحتمل

مالا يحتمله الكلام) (٧).

بل لا أعرف أن العرب حين نعتوا القرآن بالشعر قصدوا إلى التشابه بينهما في الوزن، وإنما كان ذلك إقراراً منهم بسمو بيانه، وجمال إيقاعه وتحدر نظمه، لأن هذه صفة الشعر عندهم، كما كان وصفه بالسحر دليلاً على قوة تأثيره في نفوسهم، وعجزهم عن محاكاته، فهو هذيان مهزوم، وهو من محوم، يقول أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي: (للشعر أوزانه وقوافيه التي تمنع أن ينتسب إليها القرآن، والذين قالوا عن رسول الله «شاعر» تربص به ريب المنون، لم يقولوا ذلك عن اعتقاد وإيقان، فهم يعرفون ضروب الشعر وأوزانه، إنما غلبتهم العصبية فطفقوا يهرفون بما لا يوقنون، فرة ينسبونه للكهانة، وثانية للسحر، وثالثة للشعر، لا لأنهم يعتقدون ذلك، بل ليوحوا إلى العامة بما يغرس بذور الشك في نفوسهم فلا يؤمنون) (٨).

(٢) السابق ٢٦٧/٣

(٤) السابق ٢٧٨/٣

(٦) السابق ٢٨٦/٣

(٨) البيان القرآني ص ١٦٠

(١) معاني القرآن ٢٦٠/٣

(٣) السابق ٢٧٣/٣ ، ٢٧٤

(٥) السابق ٢٨٣/٣

(٧) السابق ١١٨/٣

لا أحسب أن فنا من فنون البلاغة تعرض عند تطبيقه على النظم القرآني لخطأ الرأي كما تعرض له السجع ، بين مفرد يغالى في رفضه ، تزيها للقرآن عن شائبة تكلف واستكراه للألفاظ كالباقلائي ، ومفرد يباليغ في احتفاء القرآن به لدرجة يدعى فيها إكراه المعاني على ارتداء ما لا يناسبها من الألفاظ ، حتى زعم أن القرآن يختار من الأعداد ما يشا كل رؤوس الآي وإن خالفت حقيقة المعداد ، كما في قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (١) » ، وقوله : « عليها تسعة عشر (٢) » ، فلا الحاملون للعرش ثمانية ، ولا خزنة جهنم تسعة عشر ، ولكنها السبعة التي قبضت بزمام النظم (٣) . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

نحن نقول مع الأستاذ على الجندي (لا ننكر ما للسجع والازدواج من أجراس شاجية ، تكسب الكلام أناقة وحلاوة ، وتجعل له وقعا نديا على السمع والقلب ، ولكننا لا نستطيع بحال أن نزله هذه المنزلة الخطيرة التي يستباح معها الخطأ في الكلام ، والتي تسحب ذيل الإغفال والإهمال على كل غرض آخر ، وبخاصة حينما يتصل الأمر بكلام الله وكلام رسوله) (٤) .

هذه هي النظرة المعتدلة إلى فواصل القرآن (فالبلاغة من حيث هي فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها ، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي . وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية ، بدالاتها المعنوية المرهفة ، ونسقتها الفريد في إيقاعها الباهر ، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي ، يكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها البيانية) (٥) .

(١) سورة الحاقة ١٧

(٢) سورة المدثر ٣٠

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي نقلًا عن « تولدك » ، ص ٣٧٤ وما بعدها .

(٤) صور البديع - فن الإسجاع ص ٩٩

(٥) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٥٨

وهذه النظرة المعتدلة نرى أن تناسب الفواصل مقصد من مقاصد النظم، وهو من جمل القرآن وروايد تأثيره، ليكثرتنا نزه القرآن عن أن يقهر المعاني - في سبيل تحقيق هذه الغاية - على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدث في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفا لترتيبها في الجنان .

وقد حاولت جاهدا أن أسمع لمس السياق، وأنعم النظر فيما قيل فيه بمخالفة الأصل في الترتيب لتناسب المقاطع، بحثا عن أغراض النظم وراء هذه المخالفة، هادفا - دون شطط أو تكلف - إلى الكشف عما صاحب موسيقى الفواصل من أسرار البيان . يبين منا أن كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للنظم الذي يتعاقب فيه حسن اللفظ وسمو المعنى .

الترتيب بين المتعاطفات

من المواطن التي قيل فيها إن القرآن غاير الترتيب بين المتعاطفات لتناسب الفواصل، تقديم الأرض على السماء، مخالفة للأصل من تقديم الأشرف على ما هو دونه، وقد راعى القرآن الأصل في معظم المواطن التي اقترنت فيها السماء والأرض، فقدم السماء، إلا بعض المواضع القليلة التي تقدمت فيها الأرض، فقليل إن تقديمها لغرض تحقيق السجع . يقول المرجوم الشيخ عبد الرحمن تلج : (ورد في القرآن عشرات المرات ذكر الأرض مقرونة بالسماء مفردة وبمجموعة، وفي هذه المرات جميعها نجد أن السماء أو السموات مقدمة على الأرض إلا في مواضع قليلة جداً قدم فيها ذكر الأرض، وبتجلي في موضعين؛ وذلك من أجل تناسب الفواصل . فمن ذلك قوله تعالى : « تنزيلا بمن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى »، (١)

فإن فواصل السورة على الألف ، ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدمت الأرض على السموات ، التي وصفت بوصف « العلي » المختوم بالألف .

ولذلك لما انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرة أخرى بين الأرض والسماء في الآية التالية للآيات السابقة مباشرة عُد الاقتران إلى أصله ، فقدمت السموات على الأرض « له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » (١) .

ومن ذلك أيضا قوله سبحانه : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نؤمن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء » (٢) .

فقد قدمت الأرض على السماء في هذه الآية ، لأنه أريد تناسب الفاصلة فيها مع الفواصل الأخرى المبينة على الهمزة (٣) .

وحيث تتسبع ورود السماء والأرض معطوفة إحداهما على الأخرى في القرآن الكريم نجد ما يربو على مائتي موضع تقدمت فيها السماء على الأرض ، جريا على الأصل من تقديم الأشرف ، والأدل على قدرته تعالى ، في مجال الامتنان بعظيم خلقه ، وعجائب صنعه ، وتقدمت الأرض على السماء في ثلاثة عشر موضعا ليس من بينها سوى موضعين وقعت السماء فيهما فاصلة . وموضع واحد وقعت فيه موطئة للفاصلة ، فإذا اعتدنا بمثل هذا القول الذي يعتبر التقديم فيها مجرد رعاية الفواصل ، فإن عشرة مواضع تقدمت فيها الأرض وليست فاصلة يصبح تقديمها عاريا من الفائدة ، وهو ما لا يصح وقوعه بحال في بيان معجز .

(١) سورة طه آية ٤

(٢) سورة إبراهيم ٣٨ - ٣٩

(٣) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولفوية ص ١١٢

على أن أحد الموضوعين اللذين وقعت فيهما السماء فاعلة جاءت فاعلته بين
 خواصل متغايرة الروى والوزن ، وذلك قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى
 القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل .
 من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب
 شديد والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء
 هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (١)
 فالفواصل : « الإنجيل » « انتقام » « السماء » « الحكيم » لم تتفق فيها اثنتان
 فى حرف الروى ، وتغاير الردف فيها بالواو والياء والألف . وليس مثل
 هذا مما يتغير نظم الكلام من أجله .

إن القصور فى فهم أسرار التقديم والتأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب
 التقدم فى الزمان والشرف ، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زمانا أو أعلى رتبة
 فقد مرجحات تقديمه ، فإذا وقع فاعلة كانت هى الغرض . مع أن أسباب
 التقديم متعددة أشار إليها السهيلي بتركيز شديد فى قوله : (ما تقدم من الكلام
 فتقدمه فى اللسان على حسب تقدم المعانى فى الجنان ؛ والمعانى تتقدم بأحد
 خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ،
 وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق معنى من المعانى إلى الخلد والفكر بأحد هذه
 الأسباب الخمسة أو بأكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق . نعم
 وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل ، لا بحسب المعنى ، كقولهم :
 ربيعة ومضر ، وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل ، ولكنهم آثروا الخفة
 لأنك لو قدمت « مضر » فى اللفظ كثرت الحركات وتوالت ، فلما أخرت
 وقف عليها بالسكون (٢) .

فهو يذكر خمسة أسباب للترتيب بحسب المعنى ، وسببا لفظيا جرى عليه
 لسان العرب فى الميل إلى خفة اللفظ وسهولة جريانه على الألسنة .

ثم إن هذه الأسباب تختلف في ذاتها طبقا لمواقعها ودواعي السياق .
 فمثلا التقدم في الرتبة قد ينظر فيه إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى ، وقد
 ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان بسياقه أقرب وأعلى ، وبهذا فسر
 السبيل تقديم السماء على الأرض تارة ، وتقديم الأرض أخرى ، فقال :
 (وأما تقديم السماء على الأرض فالرتبة أيضا وبالفضل والشرف ،
 وأما تقديم الأرض من قوله تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في
 الأرض ولا في السماء » فالرتبة ، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه ، وهم
 المخاطبون بقوله : « وما تعملون من عمل » فاقضى حسن النظم تقديمها مرتبة
 في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها (١) .

ثم إن التقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل ، وقد يعكس على
 سبيل الترقى من الفاضل إلى الأفضل وقد بين وجه ذلك ابن المنير فقال :
 (وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم فقدم ، ووجه عكس هذا الترقى من
 الأدنى إلى الأعلى . ومنه قوله :

بهايل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير (٢)

هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى هو الذي أوجب تقدم الأرض في قوله
 تعالى : « لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » في سورة آل عمران وما شابهها
 من سورة إبراهيم ، وهما اللتان وقعت فيهما السماء فاصلة ، لأن العلم بما خفي
 في الأرض دون العلم بما خفي في السماء لعظم خلقها وسعتها ، فبدأ بنبي قورات
 شيء عن علمه من أسرار الأرض ، مترقيا إلى شمول علمه بما دق من أسرار
 السماء ، كما ترقى من النهى عن الأدنى إلى النهى عن الأعلى في قوله تعالى :
 « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » (٣) وكما ترقى في نبي إعجاز الكافرين له

(٢) الإنصاف ٤/٢٣٤

(١) نتائج الفسرك ص ٢٧٠

(٣) سورة الإسراء ٢٣

في قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١) » ، فهم لا يستفيدون من الحرب في الأرض الضيقة الصغيرة ، ولا في السماء العظيمة المتسعة ، وليست السماء هنا فاصلة ، حتى يقال إن التقديم فيه رعي للتناسب . فإذا ما صاحب هذا الغرض توافق المقاطع وتآخى أجراسها كان ذلك حسنا على حسن . وقد تمس ذلك العلامة أبو السعود مسارقيقا في كشفه عن سر تقديم الأرض في آية إبراهيم ، فقال : (وتقديم الأرض على السماء مع توسط « لا » بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا) (٢) مشيرا إلى أن إبراهيم عليه السلام حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكّتب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعاني في جنانه ، بادئا بالأرض ، وهي ماخى من عليها على الإنسان دون ماخى عليه من علم السماء .

أما آية طه التي احتج بها الشيخ تاج فقد وقع البيضاوى على سر دقيق لتقديم الأرض يكشف عنه قوله : (تفخيم لشأن المنزل بغرض تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذى هو عند العقل ، فبدأ بخلق الأرض والسموات وهى أصول العالم ، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس ، وأظهر عنده من السموات) (٣) .

نظر - رحمه الله - في ترتيب المعاني وصورها في الألفاظ إلى حركة العقل في توجهه لإدراك حقائق الخلق ، توصلها إلى الخالق ، فهو يدرك ظواهر الأشياء أولا ، ثم يتفقد منها إلى خوافيها ، لذا كان نسق الآيات متجاوبا مع هذه الحركة العقلية ، فقدم القرآن بين يدى تعظيم المنزل صفات الأفعال على صفات الذات ، فبدأ بخلق الأرض والسموات « تنزيلا عن خلق الأرض والسموات العلى » والخلق صفة فعل ، وهى تابعة فى الوجود لصفة

(٢) تفسير أبى السعود ٣/٥ ،

(١) سورة العنكبوت ٢٢

(٣) تفسير البيضاوى ١٩٠/٦

الذات ، وهي الرحمة التي بها كان الخلق ، ثم جاء قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ربطاً للمعتدوس بالمعتوك ، واهتداءً بالشاهد على الغائب ، وبا ثر على الخوثر ، ثم كان البدء بالارض في صفة الخلق هو الاخرى ، لقربها من الإنسان ، وظهور العلم بها ، انطلاقاً إلى العلم بما هو أعظم وأخفى ، فليس الترتيب هنا بين الارض والسموات ترتيب وجود ، ولا ترتيب تعظيم ، وإنما هو مسابرة لحركة العقل في إدراك حقائق الاشياء حسب قربها وظهورها ، بغية الاستدال بالتقريب الاظهر على البعيد الاخرى .

وقد جاء تعليل الشهاب غاية في الدقة على قول البيضاوى : « على الترتيب الذى هو عند العقل » قال الشهاب : (لانه يدرك أفعاله أولاً ، ثم يستدل بها على سائر صفاته ، ولذا قدم الخلق ، وثى بالرحمة التي تتناول الموجودات قبل كل شيء ، لأن الخلق منها ، وليس الترتيب بحسب الوجود ، فإنه بعكسه ، ولذا قدم الأرض (٢)) .

على أتى - ألمح فى تقديم الارض بين يدي مواساة الله لنيه ، وإزالة ما سببه له إعراض قومه من آلام وأحزان ، كما ينبى عنه قوله تعالى : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » - ألمح الارتباط بين الشقاء وموطنه وهو الأرض ، فكان البدء به هو الأليق ببلاغة النظم ، وذلك هو الترتيب فى الذكر الذى أشار إليه السهيلي فيما نقلناه عنه .

والقلم فى الاستشهاد بالتقديم لمواعاة الفواصل قوله تعالى : « فألقى الشجرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى (٢) » ، وهو ما اعتبره المثبتون للجمع فى القرآن دليلاً على أن تناسب الفواصل مقصد من المقاصد التي يعمد إليها القرآن ، ويغير من أجلها نظم الكلام . بدليل أنه الموضع الوحيد الذى قدم فيه هارون على موسى تجاوباً مع إيقاع الفواصل المبنية على الالف

يقول أبو بكر الرازي في مسائله : (فإن قيل : كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام في قوله تعالى : « فأتى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ، وهارون كان وزيراً لموسى عليه السلام وتبعاه . قال الله تعالى : « وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً » ؟

قلنا إنما قدمه ليقع موسى مؤخراً في اللفظ فيناسب الفواصل ، أعنى رؤوس الآيات (١) .

وأضاف الخطيب الإسكافي (٢) الحذف إلى التقديم في هذه الآية لتحقيق هذا التناسب ، فلم يذكر « رب العالمين » كما جاء في سورتي الأعراف والشعراء مراعاة للفواصل كذلك ، وهو ما تردد في كتب المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . يقول صاحب المنار : (فإن قيل : ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم آخر فيها موسى وقدم اسم هارون ؟ فالجواب عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور ، بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها (٣) .

إن القول بحذف « رب العالمين » من سورة طه لمجرد التشاكل إهمال لما بنيت عليه هذه السورة من الإيجاز في تصوير هذا الحدث ، كما يدل عليه ترتب سجود السحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء ، دون ذكر إلقاء موسى عصاه ، وهو ما تردت به سورة طه .

أما تقديم هارون على موسى فقد تكاثرت فيه التعليلات كانت أوهاما ماردّ به الباقلاني على القائلين بالسجع في القرآن ، وهو أن (إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا ، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة ، وتدبين فيه للبلاغة (٤)) لأنه يرد عليه أن مخالفة الترتيب

(١) مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل ص ٢٢٠ .

(٢) ينظر درة التنزيل ١٧٥ (٣) تفسير المنار ٦١/٩

(٤) إعجاز القرآن ص ٦١

تم على وجهها لو وقعت في إحدى السورتين : الأعراف أو الشعراء ،
لمغايرتها لفواصل السورة . أما أن تكون المخالفة في سورة طه التي تتحقق
بها مراعاة الفواصل ، فإن هذا لا يسقط حجة المعارضين .

ومثل هذا يرد كذلك على ما قاله أبو السعود ، والبيضاوي ،
وغيرهما ، من أن تقديم هارون لكبر سنه ، أو لدفع وهم أن يكون المقصود
برب موسى لو قدم هو فرعون لسابق تربيته له ، ويكون ذكر هارون على
سبيل الاستتباع (١) . فيقال لهم : ولم لم يراع هذا في سورتي الأعراف
والشعراء ؟ وما الذي استدعى دفع هذا التوهم في هذا الموضوع خاصة ؟

وهذا نفسه يرد على ما ذهب إليه الحسناوي من أن هذا التقديم (يصور
الحالة النفسية التي كان عليها السحرة لما ظهرت معجزة موسى ، فألقوا سجدا
يتلثمون بالشهادة ، كحال العبد الذي فرح بلقاء راحته بعد ضياعها فقال
من شدة الفرح على ما جاء في صحيح مسلم : اللهم أنت عبدى وأنا ربك (٢))

فلم ظهر هذا التلثم في سورة طه وحدها دون الموضوعين الآخرين ؟

اللهم إلا أن يقال : إن تصوير الحدث في سورة طه بما تضمنه من
اختفاء موسى بعد أن أمر الله تعالى بالإلقاء ، وترتيب سجودهم وإيمانهم
وقولهم هذا على الأمر بالإلقاء ، وكأن المعركة بينهم وبين الله تعالى لا بينهم
وبين موسى وما يوحيه من السرعة في حسم المعركة وشدة الهزيمة ، وهو
ما تميزت به هذه السورة !!

ولسكنه لم يقل هذا ولا شيئاً يبرر به هذه المغايرة . ولعل أكون قد
هضدت رأيه بما كان يجب أن يقوله .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢٨/٦ ، والبيضاوي ٢٥١/٦

(٢) الفاصلة القرآنية ص : ١٢٠

ولعل أقرب الآراء إلى القبول ما ذكره الدكتور محمد أبو موسى معتمداً على وحى السياق ، وهو أن بدء السحرة (بمن لبس أفضل دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها ، وذلك لأن الآية لم تظهر على يد هارون ، ولم يكن هو الغالب ، وليس في تقديم موسى الذى لقت عصاه ما صنعوا شيئاً يلفت ، لأنه هو الأصل ، أما تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللافت ، لأنه جاء على خلاف الأصل ، ويلاحظ أن سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السحرة بهذه المغالبة ، واحتشادهم لها احتشاداً جعل موسى عليه السلام يقول بعد ما جعلوا موعدهم يوم الزينة : « ويلكم لا تقفروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب (١) » .

وقد بدا لي رأي هو امتداد لما ذكره الدكتور أبو موسى وتوسيع للمأثرة السياق ، تمتد فيه العناية من التركيز على احتشاد السحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث ، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل الترتي بعد أن كان ذكره في السورتين على سبيل التبعية .

أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون في هذه السورة وحدها فهذا ما يفصح عنه السياق ، حيث جاء في دعاء موسى من هذه السورة : (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى أشد به أزرى وأشركه في أمرى (٢)) .

فهى السورة الوحيدة التي صرح فيها بهذه المشاركة ، وهى أقوى في إبراز دوره من قوله في سورة الشعراء « فأرسل إلى هارون (٣) » وهى الوحيدة بين السور الثلاث التي طلب فيها من ربه أن يجعله وزيراً . وقال في هذه السورة : « فأيتاه فقولا إنا رسول ربك (٤) » فأبرز بتثنية الرسول استقلال

(٢) سورة طه آية ٢٩ - ٣٠

(٤) سورة طه آية ٤٧

(١) الإعجاز البلاغى ص ١٩٩

(٣) سورة الشعراء آية ١٣

هارون، في حين ظهرت تبعيته في أفراد الرسول فمن سورة الشعراء : فأتيا
فرعون ققولا إنا رسول رب العالمين (١) .

واستمراراً لإبراز استقلال هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث
وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى من السحر : قالوا إن هذان
لساحران يريدان أن يخرجكما من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٢) ،
فتواتت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى في مجابهة القوم ، أما في
سورتي الأعراف ، وطه ، فقد أفردوا موسى عليه السلام بوصف السحر ،
وتوارث شخصية هارون تماماً فجاء في سورة الأعراف : (قال الملا من قوم
فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون (٣) ،
وفي سورة الشعراء : « قال للملا خولة إن هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم
من أرضكم بسحره فإذا تأمرون (٤) » .

كل ذلك جعل من تقديم هارون في سورة طه إبرازاً لدوره ، وتركيزاً
على مشاركته في الأحداث ، ثم جاء موسى بعده على سبيل الترقى من البدء
بالأفضل فالأفضل ، بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته فإنه يوحى
بتبعيته ، ويبدو في دور المساند لا المشارك .

وما قيل بالتقديم والتأخير فيه مراعاة للتناسب قوله تعالى : « إياك نعبد
وإياك نستعين (٥) » بناء على أن العبادة تتطلب الاستعانة بالمعبود للتوفيق
إليها ، أو كما قال السيد الشريف : (العبادة لما كانت تقربهم إلى مولاهم
بأفعالهم ، والاستعانة طلب لفعل المولى كان تقديمها على العبادة أولى (٦))

(١) سورة الشعراء ١٦ (٢) سورة طه ٦٣

(٣) سورة الأعراف ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) سورة الشعراء ٣٤ - ٣٥ (٥) سورة الفاتحة ٤

(٦) حاشية للسيد الشريف على الكشاف ١/٦٤ .

فوجد البعض في تناسب الفواصل السبب في العدول عن الأصل ، بل عدوا هذه الآية دليلا على قصد القرآن إلى السجع وتغيير نسق الكلام من أجله (١) .

كان الزمخشري من أوائل من تنبه إلى أن التقديم وراه سر يتعلق بأغراض النظم (فإن قلت : لم قدمت العبادة على الاستعانة ؟ قلت : لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها (٢)) .

وأضاف أبو السعود : (أن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المتقين (٣)) فالتقديم على رأى الزمخشري من تقديم العلة على المعلول ، وعلى رأى أبي السعود من تقديم الأشراف . وذهب البيضاوى إلى أن ذكر الاستعانة بعد العبادة من باب التكميل والاحتراس ، فقال : لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أو هم ذلك تبجحا واعتداداً منه بما يصدر عنه ، فعقبه بقوله « وإياك نستعين » ليدل على أن العبادة أيضا بما لا يتم ولا يستتب إلا بمعونة منه وتوفيق (٤) .

فجاء تقديم العبادة على الاستعانة ليوافق ترتيب الألفاظ ترتيب معانيها ، فيرشد الترتيب الذكري للترتيب الخارجى (٥) .

هذا قليل من كثير فى بيان سر التقديم ، بما حفلت به كتب التفسير ، وهو فى نظرى - إغراق لا يخلو من التكلف ، وهو إلى جدل المناطقة أقرب منه إلى ذوق أهل البيان . ذلك أن تقديم المفعول على فعل العبادة والاستعانة بدلالته على الحصر ، يجعل تخصيص الاستعانة بالله وحده أرقى درجة من تخصيصه بالعبادة ، لأن الأولى تخلص من الشرك الظاهر ، والثانية تخلص من

(١) انظر المثل الشائر ٢/٢١٢ ، والبرهان ١/٦٣

(٢) السكشاف ١/٦٥ (٣) تفسير أبى السعود ١/١٧

(٤) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١/١٢٢

(٥) حاشية الشهاب ١/١٢٢

الشرك الخنى ، فكم من عابد يخلص لله العبادة ، لكنه لا يستطيع إخلاص الاستعانة به ، على ما تقتضى به طبيعة التعجل فى النفس البشرية ورغبتها فى تحقيق ما تصبو إليه ، وما يصاحب ذلك من مشاعر القلق والخوف بما يدفع إلى الركون لغيره سبحانه فى تحقيق أغراض النفس . فكان حصر الاستعانة فى الله وحده مرحلة من مراحل اليقين لا يصل إليها إلا صفوة المتقين ، وصار إخلاص العبادة هو السبيل إلى هذه الدرجة من الثقة بعون الله والاطمئنان إليه ، حتى لا يلوذ العابد فى طلب حوائجه إلى غير مولاه . ولعل الخازن فى أحد وجوه ذكرها رمت هذا المعنى بقوله : (إن الالتمانة نوع تعبد ، فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً ، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها^(١)) .

إن القول بأن (العبادة تقرب للخالق تعالى ، فهى أجدر بالتقديم فى المناجاة ، وأما الاستعانة فهى لنفع المخلوق للتيسير عليه ، فناسب أن يقدم المناجى ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك)^(٢) هذا القول يقيد العلاقة بين الله وخلقه بمقاييس العلاقات بين المخلوقين . فيقدم العبد من العبادة ما يستحق به الإعانة . إن طلب العون من الله دعاء ، والدعاء قمة العبادة ، وتركه يستوجب العذاب ، وقد فسرت به العبادة^(٣) فى قوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »^(٤) وفى الحديث : (الدعاء هو العبادة^(٥)) فدل عليه السلام

(١) لباب التأويل فى معانى التنزيل ١٧/١

(٢) التحرير والتنوير ١٨٩/١

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٨٦/٤ (٤) سورة غافر ٦٠

(٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود وأبو داود والنسائى

وابن ماجه .

بهذا الحصر على فضله وشرفه على سائر العبادات . وعلى ذلك فالترتيب جاء في الآية على الأصل من عطف الخاص على العام .

ومن المواطن التي جعل فيها عكس الترتيب لرعاية الفاصلة ما نقله السيوطي عن ابن الصاغ (تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو « فله الآخرة والأولى (١) » ، ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى كقوله تعالى : « له الحمد في الأولى والآخرة (٢) » .

وبتبع مواطن وقوع الأولى والآخرة بمجموعين في صورة عطف بالواو ، نجد أن « الأولى » تقدمت على « الآخرة » في موضع واحد ، هو قوله تعالى : « وهو الله الذي لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون (٣) » ، وهذا هو الأصل في الترتيب الوجودي لسبق زمن الدنيا على زمن الآخرة . وهو النهج الذي سلكه النظم الحكيم في تقديم الدنيا على الآخرة في كل موطن اجتماعهما فيه أما تقديم الآخرة على الأولى فقد جاء في ثلاثة مواطن ، الأول قوله تعالى خطاباً للمشركين : « إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنى فله الآخرة والأولى وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٤) » .

وتقديم الآخرة فيه على الأولى يتعاقب مع سياقه أداء وغرضاً ، حيث يتسق التقديم في هذه الفاصلة مع التقديم في الفاصلتين قبلها ، الأولى قوله تعالى : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وفيها قدم « من ربهم » على الفاعل « الهدى » تنبيهاً على أن من شأن الرب الرحيم أن لا يهدي من يريه إلى غير ما ينفعه وينجيّه ، والثانية : (أم للإنسان ما تمنى) وفيها قدم الخبر « للإنسان »

(٢) الإيقان ٢/٩٩

(١) سورة النجم ٢٥

(٤) سورة النجم ٢٣ - ٢٦

(٣) سورة القصص ٧٠

وهو بدلالته على التخصيص يحقق الغاية من الإنكار والتهمك بهذا المخلوق الذى يتجاوز قدره ، ويتصرف فى خلق الله تصرف الخالق ، ويفتات على ربه ، فيختار لله أدنى الجنسين ويختص نفسه بأشرفهما . « ألكم الذكر وله الأثنى » . ثم جاء تقديم الآخرة متوافقاً مع سياقه فى الأداء ، ومحققاً الغرض فى المبادرة برد أطماع هذا الإنسان الذى تجاوز فى أمانيه وغلا ، فزعم أنه سيفلت فى الآخرة من عذاب ربه بشفاعة أصنام عبدها من دون الله . فلما كانت هذه الأمنية متعلقة بالآخرة قدمت ، مسارعة إلى قطع هذه الأمانى وتكذيبها بحصر ملكيتها مع ملكية الدنيا فى الله وحده ، وهو ما كشف عنه الالوسى فى قوله : (وقدمت الآخرة اهتماماً برد ما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً » وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية (١) .

والموطن الثانى الذى تقدمت فيه الآخرة على الأولى قوله تعالى حديثاً عن موسى وفرعون : « هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدير يسعى لخشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذ الله نكال الآخرة والأولى » (٢) .

الأظهر فى تفسير الآخرة والأولى هنا ما روى عن ابن عباس ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل من أنهما كلمتا فرعون « ما علمت لكم من إله غيرى (٣) » و « أنا ربكم الأعلى » وهو الوجه الذى قدمه الرازى فى تفسيره ثم قال : (والمقصود التنبيه على أنه ما أخذ بكلمته الأولى فى الحال ، بل

(٢) سور النازعات ١٥ - ٢٥

(١) روح المعانى ٥٨/٢٧

(٣) سورة القصص ٣٨

أمهله أربعين سنة ، فلما ذكر الثانية أخذ بهما ، وفي هذا تنبيه على أنه تعالى
يمهل ولا يهمل (١) .

وبهذا تتقدم الآخرة تحقيقا لغرض النظم في الإشارة إلى أن قول
فرعون « أنا ربكم الأعلى » هو السبب في إسراع الله بإزالة العقاب به ، كما
يدل عليه حرف التعقيب ، إلى جانب الدلالة على أنها أشنع وأفظع من
الأولى ، لتفاوت ما بين إنكار العلم بوجود إله غيره ، وبين تصريحه بالربوبية
الموصوفة بغاية التعالي والتفرد .

أما المواطن الثالث : وهو قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق
بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره
للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة
والأولى (٢) » .

فقد جاء تقديم الآخرة فيه استجابة لما بنيت عليه السورة من التهديد
والإنذار بسوء العاقبة لمن كذب وأعرض ، والتنكيل به في الآخرة ،
وهو ما ينبىء عنه افتتاح السورة بالقسم ، وبدئه بالليل الذى يخيم بظلامه على
دنيا الناس ، تأكيداً على اختلاف مساعى الناس وتفرقهم ، وما يترتب عليه
من اختلاف جزائهم ، ولما كان الغرض هو إنذار المستبينين بعذاب الله ،
المتمادين فى ضلالهم ، كان تقديم الآخرة هو الأنسب بهذا السياق المنذر
المتوعد ، لأنها زمن إنزال العقوبة بهم ، ولهذا أعقبها قوله تعالى : « فأندرتكم
نارا تطفى لا يصلها إلا الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى » مقدما
جزاء الأتقياء على جزاء الاتقياء ، ملتفياً فى جزائهم بإبعادهم عن النار ،
على خلاف الغالب فى القرآن من تقديم جزاء المؤمنين . مثل هذا السياق
لا يفتى بحق البلاغة فيه إلا تقديم الآخرة ، فإذا تحقق معه الانسجام الصوتى ،

وتناسب الإيقاع في الفواصل ، فذلك ما لا يتم على هذا الوجه من الكمال في غير هذا النظم المعجز .

تقول الدكتورة بدت الشاطيء . (وثلثت إلى ملحظ بياني في الآية ، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة ، وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى ، وإنما اقتضاه المعنى في سياق البشرى والنذير ، إذ الآخر هي دار القرار ، وكذلك قدمت الأخرى على الأولى في سياق البشرى للصلطي بآية الضحى « وللآخرة خير لك من الأولى » ، كما قدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون ، إذ أدبر وتولى ، « فأخذ الله نكال الآخرة والأولى » بآية النزاعات . وفي مثل هذا السياق من الوعيد تتقدم الآخرة على الأولى في آية الليل (١) .

وهو كلام طيب لا يعيبه إلا قوله تعالى « وللآخرة خير لك من الأولى » إلى الآيات الثلاث ، إذ لتقديم فيها أوجبه طبيعة أسلوب التفضيل ، الذي يلزم فيه تقديم المفضل على المفضل عليه ، وحديث البلاغة فيما تجيز قواعد اللغة تقديمه وتأخيرها ، لا فيما يتعين تقديمه لآداء أصل المعنى .

وما قيل فيه بتقديم المؤخر زمانا للفاصلة ، قوله تعالى : « أم لم يذبا بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي (٢) » ، فقدم موسى وهو متأخر وجودا على إبراهيم عليهما السلام ، في حين جاء على الأصل في قوله تعالى : « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى (٣) » .

والقول بالتقديم لرعاية الفاصلة يتجاهل الفروق بين أغراض النظم ، واختلافات السياق ، فلو أن الغرض هو مراعاة الفواصل وحدها ، لقيل في سورة النجم : « أم لم يذبا بما في صحف إبراهيم وموسى » ، وفاء بحق الفواصل ، وهي متحدة في السورتين دون اللجوء إلى تغيير النسق بالتقديم والتأخير .

(١) التفسير البياني للقرآن ١١٢/٢ . (٢) سورة النجم ٣٦ - ٣٧

(٣) سورة الأعلى ١٨ - ١٩

و حين تتأمل سياق الآيتين ، نجد أن آية الأهل وقعت تقريراً لحقائق التوحيد والنبوة ، وما تبعها من المجازاة على الكفر والإيمان ، تأكيداً على أن هذه هي أصول الشرائع كلها ، وملتقى رسالات المرسلين ، بذلك على ذلك البدء بالتوكيد ، والعموم المفهوم من قوله « لني الصحف الأولى ، قبل تخصيص صحف إبراهيم وموسى ، وتخصيصهما بالذكر لما أنهما الأشهر لدى العرب ومن ساكنهم من أهل الكتاب . فالخطاب هنا عام جرى فيه تقديم إبراهيم على الأصل في الترتيب الوجودى .

أما آية النجم فالخطاب فيها موجه أصالة إلى رجل من المشركين زعم أنه يحمل عن غيره أوزاره يوم القيامة ، كما يتضح من الحوار : « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى (١) » فأحيل فى علمه على الأشهر المتداول بين العرب من كتب السماء ، وهى صحف إبراهيم وموسى ، وقدم ماهو أشهر من صحف النبيين الكريمين ، لأن علم العرب بصحف موسى أكثر من علمهم بما فى صحف إبراهيم ، بعد أن طال العهد بها ، ومال العرب بشركهم عن الحنيفية ، بخلاف صحف موسى التى يستمعون إليها من أهل الكتاب الذين يساكنونهم فى الجزيرة ، فقدم القرآن للخطاب ماهو به أعلم ، وتداوله لديه أشهر . ذلك ما تنطق به أسباب النزول على ما روى أنها (نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وذلك أنه سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس إليه ، ووعظه رسول الله ، فقرب من الإسلام ، وطمع النبي عليه السلام فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آباءك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أحمل لك بكل شئ تخافه فى الآخرة ، لكن على أن تعطينى كذا وكذا ، من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما هم به من الإسلام ، وضل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض

ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عنه وشع ، فزلت الآية فيه (١) .

لجزى التقديم على ما هو أقرب لدى المخاطب وأشد ظهوراً عنده تسجيلاً عليه . وإلى هذا ذهب أبو السعود في تعليل التقديم قائلاً : (وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة عندهم أشهر وأكثر (٢)) .

وبما خفي سر الترتيب فيه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد (٣) » ، فتقدمت البطون على الجلود ، مخالفة للظاهر من أن الصهر يتناول الجلود أولاً ، ثم يفضى إلى البطون ، فعلم الشهاب تأخير الجلود بثلاثة أوجه ؛ أحدها مراعاة الفواصل ، وقدمه على الوجهين الآخرين ، فقال : (وتأخيره عنه إما لمراعاة الفاصلة ، أو للإشعار بغاية الحرارة ، بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر ، مع أنه على العكس وقيل : التأثير في الظاهر ظاهر غنى عن البيان ، وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ، ولذا قدم الباطن ، لأنه المقصود الأهم ؛ فلا يتوهم أن حق النظم تقديم الجلود (٤)) .

ولا أرى كيف غاب عنه أمر التقديم كما غاب عن غيره ممن قالوا إن البطون مقدمة من تأخير (٥) مع أن المتأمل لنظم الآية لا يخفى عليه أن ترتيب الألفاظ جاء على وفق ترتيب المعاني دون مخالفة للأصل ، لأن الحميم يصب من فوق الرأس ، فينفذ منها إلى البطن ، ويبدأ في صهرها حتى ينتهي إلى الجلد ، كما يشهد بذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخرج عبد بن حميد

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٧٦/١٥

(٢) تفسير أبي السعود ١١٣/٨ (٣) سورة الحج ١٩ - ٢١

(٤) حاشية الشهاب ٢٨٩/٦

(٥) انظر تفسير أبي السعود ١٠١/٦ ، والبيضاوي ٢٨٩/٦ ، وروح

والترمذى ، وصححه . وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد . وجماعة عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحميم ليصب على رؤوسهم ، فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت مافي جوفه حتى يمرق إلى قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان (١) فلا يتصور أن يبدأ الصهر من الجلود ، إلا إذا صب الحميم على جلودهم ، أما وأنه يصب على الرؤوس فينفذ منها إلى البطون ، فلا مجال للقرل بالتقديم والتأخير ، ولولا أن القرآن قصد إلى حركة الحميم داخل الأجسام ، والنفاذ من الرأس إليها مباشرة ، لقال : يصب عليهم الحميم ، وحينئذ يمكن أن يقال إن الجلود حقها التقديم .

ثم إن التعذيب من الظاهر دل عليه القرآن بقوله « قطعتم لهم ثياب من نار ، وهذا هو العذاب الظاهر للجسد ، فكان صب الحميم في بطونهم نوعا آخر من التعذيب داخل الأجساد . وقد أحسن أبو حيان تصور المعاني بما يروا كب ظلالها في الألفاظ ، فقال : (ولما ذكر ما يعذب به الجسد ظاهره ، وما يصب على الرأس ، ذكر ما يصل إلى باطن المعذب ، وهو الحميم الذي يذيب مافي البطون من الحشا ، ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر وهو الجلد ، فيؤثر في الظاهر تأثيره في الباطن (٢)) .

وبما تداولته الاقلام مثالا لرعاية الفواصل وتغيير النظم من أجلها ، قوله تعالى : . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنما إذا أذقتنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيبا إنه عليم قدير (٣) ، قيل : إن تقديم الإناث على الذكور وهن الأدنى

(٢) البحر المحيط ٦/٣٦٠

(١) روح المعاني ١٧/١٣٤

(٣) سورة الشورى آية ٤٨ - ٥٠

منزلة ، جاء لمشاكلة رؤوس الآي ، بدليلين : الأول أنه عاد فقدم الذكور حين لم يكن فاصلة ، على الأصل من تقديم الأشرف . والثاني تعريف الذكور لكي يتحقق التناسب مع الفواصل ، كفور ، و قدير ، ولولا هذا التعريف لخالف بالتنوين نسق الفواصل .

وبتبع ورود الجلسين متعاطفين في الذكر الحكيم ، مُعبراً عنهما بالذكر والأثني تارة ، والرجال والنساء تارة ثانية ، وبالبنات والبنين ثالثة ، أخصيت خمسة عشر موضعاً قدم فيها الذكر ، على الأصل من تقديم الأهم بالذات ، لما أن الرجل بحكم تكوينه وقدراته هو المسئول عن توجيه حركة الحياة ، فهو الأصل والأجدر بالتقديم .

وقدمت الأثني في مواضع خمسة لأهميتها في سياقاتها ، ومقتضيات ومقاماتها ، وهو ضرب من الاهتمام بالمقدم لذاته ، بل لدواعي الأحوال والأغراض ، وذلك مانبه إليه الشباب : (والاهتمام قد يكون بما يقتضيه الذات ، وقد يكون بما يقتضيه المقام والسياق (١)) .

والتأمل لسياق آية الشورى موضع الحديث ، يطالعنا هذا الخطاب الحثي على رسول الله ، وهو يواجه عنق قومه و صلفهم ، تأنيساً له ، وإزالة لمومته ، فما عليه إن لم يؤمنوا ، وقد أدى مهمته وبلغ رسالة ربه ، وذلك يدلك على مدى العناد والإصرار على الكفر ، كما ذكبت به الآية الأولى : « فإن الإنسان كفور » ثم أعقبه ببيان طلاقة القدرة ، واختصاص الله تعالى بملكية ما خلق ، والتصرف فيه بمشيئته القاهرة المشيئة من خلق ، فكان البدء بما يشاؤه الله ويكرهه الإنسان أدل على هذه القدرة ، وقهر هؤلاء الذين يجادون الله في ملكه ، لذا بدأ بالجنس الذي جرت عادة المخاطبين على كراهيته ، وعده ضرباً من ضروب البلاء ، إشارة إلى أنه يفعل ما يريد

(١) حاشية الشباب ٧/٤٢٨

هو لا ما يريد خلقه . وهذا ما كشف عنه بدقة بالغة جار الله الزمخشري :
 (فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه ، لا ما يشاؤه الإنسان ،
 فكان ذكر الإناث الاتي من جملة ما يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب
 التقديم ، وإيلي المجلس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، وأخر
 الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحق بالتحديد بتعريفهم ،
 لأن التعريف تنويته وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام ،
 المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه
 من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم ، ولكن لمقتضى
 آخر ، فقال : « ذكرانا وإناثا » كما قال : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى (١) »
 « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٢) » (٢) .

والمواضع الأربعة الأخرى قدمت فيها البنات على البنين ، وهي قوله
 تعالى : « فاستفهم أربك البنات ولهم البنون (٤) » وقوله : « أم اتخذ مما
 يخلق بنات وأصفاكم بالبنين (٥) » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم
 ما يشتهون (٦) » وقوله : « أم له البنات ولكم البنون (٧) » وفيها تقدم الأهم
 في سياقه كذلك ، إذ أن محط الإنكار فيها أن يخصوا الله تعالى بأذن
 الجنسين ، وتلك أقبح وأشنع مقالات الكفر ، حيث لم يكتفوا بأن ينسبوا
 إلى الله الولد ، حتى نسبوا إلى الله منه أخس الجنسين ، ومن كانوا يعزفون
 عنه ويمتروونه ، على ما صوره آله تعالى في رده عليهم « أم اتخذ مما يخلق بنات
 وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم
 لو من ينقأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » (٨) .

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الحجرات آية ١٣ | (٢) سورة القيامة آية ٣٩ |
| (٣) للكشاف ٣/٧٥ | (٤) سورة الصافات آية ١٤٩ |
| (٥) سورة الزخرف آية ١٦ | (٦) سورة النحل آية ٥٧ |
| (٧) سورة الطور آية ٢٩ | (٨) سورة الزخرف آية ١٦ - ١٨ |

فلما كانت نسبة البنات إلى الله تعالى هي محط الإنكار ، ونسبتهم البنين إلى أنفسهم زيادة في تفضيح مقالتهم ، قدم الأهم وهو البنات .

ومما خولف فيه النظم بتقديم غير الأشرف ، لكونه أهم في سياقه ، وتحقق معه رعى الفواصل ، قوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجمع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق (١) » .

جاءت هذه الآيات تذييلاً لقصص أقوام كذبوا بأنبيائهم فحلت بهم لعنات السماء ، وأنزل الله بهم من العقاب في العاجلة ما صاروا به مثلاً للكاذبين ، ثم توعدهم الله في الآجلة بعذاب أشد ، في هذا الجو الذي تحيط به نذر العذاب ، قدم الأشقياء وجزاؤهم على السعداء وجزائهم ، على غرار قوله تعالى : « فأندرتكم نارا تلتظى لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنها الأتقى » (٢) .

تقديم « شقى » هو من تقديم الأهم في سياقه ، وعكس ذلك يذهب بجلال النظم ، ويوجب دخان الانتقام ، وتخفت معه أجراس الأصوات المنذرة المتوعدة ، وليس من أجل تناسب المقاطع كان التقديم ، وإن تعاقب هذا التحدر في الإيقاع مع تحدر المعاني وتأخيها ، فيما يشهد بإعجاز النظم الحكيم . لو أن الفاصلة وحدها هي التي استدعت هذا النسق ، لعاد النظم الكريم في غير الفاصلة إلى تقديم الأشرف ، فبدأ بجزاء السعداء ، وقال : فأما الذين سعدوا ففي الجنة .. وأما الذين شقوا ففي النار ، على طريق اللف والنشر المشعشع . لكن الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم

(١) سورة هود آية ١٠٢ ، ١٠٦ (٢) سورة الليل آية ١٤ - ١٧ .

السابقة ، هو الذى استوجب تقديم ما تدم ، وهو شائع فى غير الفواصل ، كقوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير (١) » .

وقد أحسن أبو السعود حين قال « وتقديم الشق على السعيد ، لأن المقام مقام التحذير والإنذار (٢) » .

لكن العجيب أن أبا السعود الذى تنبه إلى هذا السر فى التقديم يقول فى قوله تعالى : « فألهما فجورها وتقواها (٣) » (وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل) (٤) .

وأنت حين تنعم النظر فى أعطاف السورة ، تجد المولى يقسم فيها بظواهر الكون على فلاح من طهر نفسه ، وباعد بينها وبين الفجور ، وضياح من أوبقها بالمعاصى . والحديث عن النفس فى القرآن حديث المقوم لها بمقارفة الذنوب ، والميل إلى الشهوات ، واتباع الهوى ، كما هو صريح قوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي (٥) » ، وقوله « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٦) » ، فتقديم الفجور بها هو الأولى ، لأنه هو الغالب على طبعها ، إلا من رحم الله وهدها إلى كبح جماحها ، وتطهيرها بالتوبة والطاعة . هذا إلى جانب أن السورة قد مضت بعد ذلك فى حديث ثمود وطغيانهم ، ومحادثهم لنبيهم ورهبهم إلى أن حل بهم عذاب الله « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها (٧) » .

ففى بسورة هذا سياقها أن يتقدم فجور النفس على تقواها ، ليلتم مع فجور المكذبين .

(٢) تفسير أبى السعود ٢٤١/٦

(٤) تفسير أبى السعود ١٦٤/٩

(٦) سورة النازعات آية ٤٠

(١) سورة التغان آية ٢

(٣) سورة الشمس آية ٨

(٥) سورة يوسف آية ٥٣

(٧) سورة الشمس آية ١٤ - ١٥

ومن خفى ضروب التقديم في الفواصل ، ما نراه في مشتبه النظم من تقديم لفظ على آخر في موطن ، وعكس الترتيب في موطن آخر ، مما يبدو لأول وهلة أن ليس لهذه المغايرة غرض سوى توافق الفواصل .

من ذلك قوله تعالى حكاية لما دار بين زكريا وربه : « قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار (١) » فقدم العشي . وعكس ذلك في قوله تعالى : « قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (٢) » .

وقد حاولت أن أجد فيما قرأت من يستفتح على في بيان سر التقديم والتأخير في الموضوعين فلم أجد ، واحتجب عنى هذا السر ، حتى كدت أسلم بأنه ليس وراء ذلك من غرض سوى تحقيق التناسب في الفواصل . لكن الله تعالى هداني بعد طول توقف إلى أن هذه المغايرة استدعاها تغيير الخطاب وذلك أن المخاطب المأمور بالتسبيح في سورة آل عمران هو زكريا عليه السلام ، والمخاطب المأمور بالتسبيح في سورة مريم هو من أرسل إليهم زكريا ، وبين الخطابين والمقامين يقع الإعجاز في ترتيب النظم ، فزكريا قدم معه العشي ، وتسبيحه فيه يستتبع قيام الليل ، والانتقطاع إلى الله تعالى في هذا الوقت الذي يصعب على غير المقربين مواصلة العبادة فيه ، ولذا أمر النبي عليه السلام بقيام الليل ، وقدم على تسبيح النهار في قوله تعالى : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا (٣) » ، وقوله « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا إن لك في النهار سبحا طويلا (٤) » ، فنبه إلى أن العبادة بالليل أشد ، ولا يواصلها إلا أصحاب العزائم من المقربين ، أما غير الأنبياء والمقربين فإن

(٢) سورة مريم آية ١١

(١) سورة آل عمران آية ٤١

(٤) سورة المزمل آية ٦ - ٧

(٣) سورة المزمل آية ١

جل تسبيحهم وصلاتهم بالنهار، على قدر ما يطيقه عامة المؤمنين ، لذا قدم ماهو الغالب على عادة الناس في خطاب زكريا لقومه .

وعما بدا فيه أن التغيير في ترتيب النظم مرجعه المحافظة على السجع، قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (١) » .

فقد بدأ بتقديم غير الأشرف وهو الأعمى ، وجرى على هذا النهج في تقديم الظلمات على النور ، ثم عدل عن هذا الترتيب ، فقدم الأشرف وهو الظل على الحرور ، فكان هذا العكس في الترتيب دافعا إلى القول بأن هذه المغايرة مرجعها إلى المحافظة على السجع ، إذ لو قدم الحرور لذهب التناسب .

وقد حمل الفخر الرازي على من يقول إن القرآن يقدم ويؤخر لتوافق رؤوس الآي ، وعلل المخالفة في الترتيب بأغراض معنوية ، فقال : (وقد قدم الأشرف في مثلين ، وهو الظل والحرور ، وآخره في مثلين ، وهو البصر والنور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون إنه لتوخى أواخر الآي ، وهو ضعيف ، لأن توخى الأواخر راجع إلى السجع ؛ ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة ، والمعنى فيه صحيح ، واللفظ فصيح ، فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول : الكفار قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في ضلالة ، فكانوا كالأعمى ، وطريقهم كالأظلمة ، ثم لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين ، وطريقهم كالنور ، فقال : وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ، ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان في

زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر
 المآل والمرجع ، قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب ، لقوله في
 الإلهيات : سبقت رحمتي غضبي ؛ ثم إن الكافر المضرب بعد البعثة ضلر أضل
 من الأعمى ، وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه ، فقال :
 « وما يستوى الأحياء ، أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله ، والأموات
 الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها ، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من
 آمن ، فأخبرهم عن المؤمنين » (١) .

لقد كان الرازى على حق في رفض أن يكون تقديم الظل متمحضا
 لغرض لفظي هو مراعاة السجع وحده ، وإن كنت أرى أنه مقصد مساوق
 للمعاني والأغراض ، والدليل على ذلك أن القرآن غير الترتيب فيما يشبه هذا
 الموضوع ، ولم تكن المغايرة في الفواصل ، حتى يقال إن تغيير الترتيب لتحقيق
 السجع ، وذلك قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا
 وعملوا الصالحات ولا المسىء » (٢) فقدم غير الأشرف وهو الأعمى ، ثم
 غير الترتيب ، فقدم الأشرف ، وهو « الذين آمنوا » ، ولم يستدع ذلك
 ضرورة سجع .

لكننى لا أستريح إلى الإبعاد فى جعل الترتيب وجوديا ، على أن العمى
 يمثل الكفر قبل بعثة النبي ، والأموات يمثل الكفر بعد بعثته ، ولا إلى
 تعليل تقدم الظل يسبق الزحمة للغضب ، لأن الآيات مسوقة فى مقام التهديد
 والوعيد ، ومثله يستدعى المبادرة بما يدل على الانتقام ، لإدخال الروح فى
 قلوب المستكبرين .

والشهاب الخفاجى يرى أن تقديم الظل (ليكون مع ما قبله على نمط
 واحد ؛ فإن العمى ، والظلمة ، والظل متناسبة ، مع ما فيه من رعاية الفواصل (٣)

(٢) سورة غافر آية ٥٨

(١) تفسير الفخر الرازى ١٧/٢٦

(٣) حاشية الشهاب ٢٢٣، ٧

والتناسب الذى يعنيه هو اشتراك الثلاثة فى احتجاب الضوء عنها ، فلماذا
التناسب قدم الظل كما قدم العمى والظلمة ، ولم يقل لنا لماذا قدم الأحياء ؟

وحين نتبع نفى استواء الأشياء فى القرآن، نجد قد ورد خمس مرات
فى المقارنة بين الأعمى والبصير، وتقدم الأعمى فيها جميعا، وقرن به الظلمات
والنور فى موضعين اثنين، وتقدمت فيهما الظلمات . وهذا التقديم هو الغالب
فى المقارنة بين المتناقضات، حين يكون الحديث منصبا على تهجين ذوى
الأفعال الدينية، والخط من شأنهم، فينفى استواء الأدنى بالأعلى، قصد إلى
إظهار قبحة بذكر نقيضه، فكما أن «الضد يظهر حسنه الضد» هو كذلك
يظهر قبحة . «قل لا يستوى الخبيث والطيب (١)» «لا يستوى أصحاب النار
وأصحاب الجنة (٢)» «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر
والمجاهدون فى سبيل الله (٣)»، فأنت ترى تقدم الأدنى، لأن الحديث فى
بيان سوئه .

ولما كان السياق فى الآيات التى نحن بصددتها فى ذم المشركين والاستخفاف
بعقولهم حين يدعون مالا يملك شيئا، والذين تدعون من دون الله ما يملكون
من قطمير إن تدعوهم لا يسمعون داءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم
القيامة يكفرون بشرككم (٤). كان البدء بنفى استواء هؤلاء الذين أعمى الله
قلوبهم بمن هداهم الله إلى الإيمان، كما لا يستوى ظلام الشرك ونور الإيمان .
ثم كانت المغايرة فى المقابلة بين الجزامين، بتقديم الثواب المتمثل فى «الظل»
على العقاب المدلول عليه بالحرور، إيماء إلى أن الله تعالى يعجل الثواب،
ويؤجل العقاب، على ما سبقت به كلمته، وهى التى ختمت بها السورة
«ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم

-
- (١) سورة المائدة آية ١٠٠
(٢) سورة الحشر آية ٢٠
(٣) سورة النساء آية ٩٥
(٤) سورة فاطر آية ١٣ - ١٤

إلى أجل مسمى (١) ، فقدم في اللفظ ما هو معجل وآخر ما هو مؤجل ،
واطرد ذلك في تقديم الأحياء على الأموات ، لأن الحياة ثمرة الهداية ،
وهي نوع من الثواب ، والموت المعبر به عن التماذى فى الكفر ضرب من
العقاب ، لأنه نخل من الله عن الكافر ، وحجب أنوار الهداية عن قلبه .

أما حينما يكون الحديث عن الصالحين ، وتعديد مناقبهم ، فإن نفى
الاستواء يقدم فيه الأشرف ، ليتصل الشناء بالثنى عليه ، ويكون ذكر مقابله
زيادة فى إظهار فضله كما فى قوله تعالى : . أمن هو قانت آناء الليل ساجدا
وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون (٢) . فكأنه قال : لا يستوى هؤلاء العابدون العالمون وأولئك
الجاهلون الضالون .

ترتيب الصفات

من الأدلة التي ساقها ابن الصائغ (١) على القصد إلى تحقيق التناسب في الفواصل ؛ ومخالفة الأصول في سبيل ذلك ، تقديم الأبلغ من الصفات ، على غير ما تقتضي به قاعدة الترتي من تأخير الأبلغ ، ومقل لذلك بقوله تعالى : « الرحمن الرحيم » ، (٢) وقوله « رءوف رحيم » (٣) .

وقد أطال المفسرون الوقوف لبيان الفرق بين الرحمن والرحيم ، وسر تقديم الرحمن ، وهم يكادون يجمعون على أنهما من أمثلة المبالغة في الرحمة ، وأن صفة الرحمن أبلغ ، بحكم أنها أكثر مبنى فهي أغزر معنى ، ولذا خص الله تعالى نفسه بهذه الصفة حتى لا يصح أن يوصف بها أحد من خلقه ، بخلاف صفة الرحيم التي وصف بها رسوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٤) ووصف بها المؤمنين « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٥) . لكنهم تغايرت آراؤهم في سر تقديم الرحمن ، وأشهرها مقاله الزمخشري : (فإن قلت : لم قدم ماهو أبلغ من الوصفين على ماهو دونه ، والقياس الترتي من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجواد فياض ؟ قلت : لما قال الرحمن ، فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها ، أردفه « الرحيم » كالسمة والرديف ، ليتناول مادق منها ولطف) (٦) .

(١) انظر الاتقان ٢/١٠٠ .

(٢) سورة الفاتحة آية ٢ (٣) سورة النور آية ٢٠ .

(٤) سورة التوبة آية ١١٧ (٥) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٦) راجع الكشاف ج ١/٤٥ .

(كان القياس تقديم أدنى الوصفين ، لأن في تقديم أعلاهما ، ثم الإرداف بأدناها نوعا من التكرار ، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول حصول مادونه ، فذكره بعده غير مفيد) (١) لذلك كان عكس ما يقضى به القياس بحاجة إلى البيان ، فخص الزمخشري الرحمن بعظام النعم وجلالها ، والرحيم بما دق منها ولطف ، فكان ذكر الرحيم على سبيل التسميم حتى لا يتوهم أن محقرات الأمور لا تليق بذاته ، فيحتشم عنه من سؤاها) (٢) .

إلا أن تخصيص الرحمن بجلال النعم ، والرحيم بدقائقها ، ما لا دليل عليه ، بل إن الله تعالى كثيرا ما يذكر جلال النعم وأصولها ، ويعقبها بصفة الرحيم وحدها ، فقد ذكر الله تعالى جليل نعمه على الإنسان في مطلع سورة النحل ، وعدد منها مخلق الملائكة ، والسموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وما سخره له في الأرض من الأنعام والخيل والبغال والحمير ، وما أنزل من السماء من ماء أنبت به الزرع والنبات والأعشاب ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والفلك والبحار ، والجبال والأنهار ، ثم عقب ذلك كله بقوله « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » (٣) .

ولا شك أن هذه نعم جليلة ، وتسخيرها للإنسان دليل على بالغ رحمة الله به ، ومع ذلك علقت بصفة « الرحيم » .

وهذا الدليل نفسه يرد به على ما حكاه الراغب في المفردات : (وقيل إن الله هو رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة ، ذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين) (٤) فتعقيب هذه النعم التي شمات الكافر والمؤمن بالرحيم يضعف هذا القول . وكما أن الله تعالى خص الرحمة بالمؤمنين في قوله تعالى : هو الذي يصلي عليكم وملائكته

(٢) حاشية الشيد الشريفة ١/٤٥٠ .

(٤) المفردات ١٩٢ .

(١) الانصاف ٤٥/١

(٣) سورة النحل آية ٢٨

ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً» (١) فإنه عم بها الناس جميعاً، فيما هياه لهم من سبل العيش في الدنيا «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً» (٢).

خير ما قيل في تعليل الجمع بين الوصفين بما يظهر بلاغة النظم الحكيم في تقديم الرحمن ما قاله ابن القيم: (وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله «وكان بالمؤمنين رحيماً» لأنه بهم رءوف رحيم» ولم يجيء قط رحمن بهم، فعلم أن «رحمن» هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكته لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها) (٣).
تأسيساً على ذلك قدمت صفة الذات على صفة الفعل، لأن صفة الفعل ناشئة عنها، فهي بمنزلة المسبب من السبب. ولعل ذلك هو الذي استلهمه الشيخ الطاهر بن عاشور في قوله: (وتقديم الرحمن على الرحيم، لأن الصفة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها) (٤).

أما تقديم الرءوف على الرحيم في مثل قوله تعالى: «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم» (٥) فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن تقديم الرءوف وهو الأبلغ،

(٢) سورة الإسراء آية ٦٦

(٤) التحرير والتبوير ١/١٧٢

(١) سورة الأحزاب آية ٤٣

(٣) بدائع الفوائد ١/٢٤

(٥) سورة البقرة آية ١٤٣

للحفاظة على تناسب رهوس الآي (١) ومنهم البيضاوى الذى رد عليه الشهاب بقوله : (هو بناء على تفسير الرأفة بأشد الرحمة ، وحينئذ المناسب رحيم رهرف ، وفيه نظر من وجهين : الأول أن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالمسجع ، كما هنا فى « رحيم وتعملون » فذلك حاصل على كل حال ، والثانى أن الرأفة حيث وردت فى القرآن قدمت ، ولو فى غير الفواصل ، كما فى قوله تعالى : « رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها » فى وسط الآية . والذى غره كلام الجوهرى وهو عندى ليس بصواب ، فإن الرأفة معناها الشفقة والल्प ، والرحمة الإنعام ، وزدتها التقديم ، كما قيل : الإيناس قبل الإيباس . وعليه استعمال العرب قال قيس بن الرقيات :

ملكك ملك رأفة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

وانظره كيف أوضع معناها بالتقابل ، ومثله كثير فى كلام العرب (٢) .

لقد أحسن الشهاب كل الإحسان فى الوجه الثانى الذى رد به كلام البيضاوى ، لكننا لا نسلم له بالوجه الأول ، لأن الفواصل فى الآيات وإن لم تكن متحدة الروى ، فإنها متقاربة ، والميم والنون حرفان متقاربان ، وعليهما بنيت معظم فواصل القرآن ، وإستبدال الفاء بالميم يذهب بتوافق المقاطع وجمال موسيقاها .

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى : (وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وترأها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها) (٣) .

(١) البحر المحيظ ١/٢٧٧ ، والبيضاوى ٢/٢٥٢

(٢) حاشية الشهاب ٢/٢٥٢

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٦

فالفواصل التي تنتهي بالميم والنون لها وقع موسيقى لا يكون للحرفين آخرين سواهما إلا أن يتجدد الروى ، فالقول بأن الفاء مع النون كالميم معها لا يتفهم طبيعة الحرفين ، وعلى هذا التوافق الموسيقى بين النون والميم بنى القائلون بتأخير الرحيم للفواصل رأيهم : (وتقديم «رءوف» ليقع لفظ «رحيم» فاصلة ، فيكون أنسب لفواصل هذه السورة ، لا ابتداء فواصلها على حرف صحيح ممدود ، يعقبه حرف صحيح ساكن ، ووصف رءوف معتمد مع ساكنه على الهمز ، والهمز شبيه بحروف العلة ، فالنطق به غير تام التمكن على اللسان ، وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه بحروف اللين ، فلا يتمكن عليه سكون الوقف) (١)

لكن ذلك لا يعنى أننا نوافق على أن التقديم إراعاة الفاصلة وحدها ، لأن مثل هذا يعاب على الساجع . يقول ابن سنان : (والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موازنة لفظه ، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأصله ، وورد ليصير وصلة إليه) (٢) .

أفيعاب هذا على الأساس فى سجعهم ونقول به فى النظم المعجز ١٩

لقد أنكر الإمام محمد عبده القول بمراعاة الفواصل فى هذه الآية أشد الإنكار فقال : (إن كل كلمة فى القرآن موضوعة فى موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ، لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة ، كما قللوا فى كثير من السجع والشعر : إنه قدم كذا ، وأخر كذا لأجل السجع ، ولأجل القافية ، والقرآن ليس بشعر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو الله الذى لاتعرض له الضرورة ، بل هو على

كل شيء قدير، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه، ثم قال :
(وعندى أن الرأفة أثر من آثار الرحمة، تشمل دفع الألم والضرر، وتشمل
الإحسان، فذكر الرحمة هنا فيه معنى التعليل والسببية، وهو من قبيل الدليل
بعد الدعوى، فهو واقع في موقعه كما تحب البلاغة وترضى) (١).

هذا كلام طيب وبمثله يجب أن ننظر إلى فواصل القرآن، لكن صاحب
المنار الذي أثبت هذا الكلام الممتع خالفه أحيانا، ففسر التقديم والتأخير
برعى الفواصل، كما أشرنا إلى ذلك في قوله تعالى : «رب هارون وموسى».

وبما بدا فيه أن التقديم جرى على غير الأصل لمشكلة رؤوس الآي،
تقديم السميع على العليم. يقول أبو حيان في قوله تعالى : «فإن آمنوا بمثل
ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو
السميع العليم» (٢) ! مناسبة هاتين الصفتين أن كلا من الإيمان وضده مشتمل
على أقوال وأفعال، وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأقوال والأفعال، فناسب
أن يختم ذلك بهما، أي وهو السميع لأقوالكم، العليم بلياتكم واعتقادكم،
ولما كانت الأقوال هي الظاهرة لنا، الدالة على ما في الباطن قدمت صفة
السميع على العليم، ولأن العليم فاصلة أيضا) (٣).

فهو يشير بذلك إلى أن الترتيب الوجودي يقضى بتقديم صفة العليم،
لأنها إحاطة بالعقائد، والسميع صفة يترتب عليها العلم بالأقوال الناشئة عن
العقائد، فحقها أن تقع بعدها، لكن جاء النظم بعكس هذا الترتيب، مراعاة
لعلم المخاطبين، الذين يستدلون بالظواهر على البواطن، ولكون تأخير
العليم يحقق تناسب الفواصل.

والمتبع لورود هاتين الصفتين في الكتاب المجيد، لا يخطئه أن يجد

(٢) سورة البقرة آية ١٢٧

(١) تفسير المنار ٢ / ١٣

(٣) البحر المحيط ١ / ٤١١

التذليل بهما في موقعين متقابلين : أحدهما في مجال التهديد والوعيد ، كما في هذه الآية ، حيث يهدد أهل الكتاب بأن الله يتولى عن نبيه مراقبتهم ومجازاتهم بأعمالهم ، وكما في قوله : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (١) » ، وفيه طمأنة للؤمنين بأن الله راد كيدهم أعدائهم إن هم أضروا النسوة في دعوتهم إلى السلم ، يكشف أمرهم ويأخذهم بمكرهم . ومقام التهديد يستدعى تقديم السمع ، للإشعار بقربه من الأصوات وشدة مراعاة أصحابها ، وذلك ما كشف عنه السهيلي في قوله : (فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب ، كالأصوات وهمس الحركات ، فإن من يسمع حسك وخفى صوتك أقرب إليك في العادة من يقال لك إنه يعلم ، وإن كان علم البازي سبحانه متعلقا بما ظهر وبطن ، وواقعا على ما قرب وشطن ، ولكن ذكر السمع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم ، فهو أولى بالتقديم (٢)) .

والثاني في مجال التقرب إلى الله واستدراج عونه ورحمته كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (٣) » وقد قدمت فيه صفة السمع لأنها التي يترتب عليها إجابة الدعاء ، ولما كان الدعاء لا يقبل إلا إذا خرج من قلب صادق وتقييدة سليمة جاء الوصف بالعليم ، ليبدل على إخلاصهما وصدق بواطنهما في توجيهها إلى الله تعالى ، حتى يكونا جديرين بتقبل الله تعالى لأعمالهما .

هذا الذي استدعى تقدم السميع على العليم هو نفسه الذي استدعى تقدم الشاكر على العليم في قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج

(١) سورة الأنفال آية ٦١ .

(٢) نتائج الفكر ص ٢٧١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٣٧ .

البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم (١) .

وليس كما قال أبو حيان : (وقد وقعت الصفتان هنا الموقوع الحسن لأن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد ، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل ، وذكر العلم باعتبار القصد ، وأخرت صفة العلم ، وإن كانت متقدمة على الشكر ، كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخي رؤوس الآي (٢)) .

والشكر من الله على ما قال الراغب : (إنعامه على عباده ، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة (٣)) هذا الإنعام والإحسان استحقه المتطوعون بأعمال الخير ، فقرن الله تعالى حسن الجزاء بحسن العمل ، وكأنه قال : من تطوع خيراً فأحسن النية والعمل كافأه الله بأحسن مما عمل ، ثم جاء الوصف بالعلم ، بمثابة تأكيد على أن الله لا يضيع من أجورهم شيئاً ، لأنه العليم بما تبديه الجوارح وتخفيه الصدور ، فجاءت كل صفة في مكانها ، وهذا ما يتضح مما نقله صاحب الفتوحات الإلهية في تفسير هاتين الصفتين وموقعهما من الآية . قال (معنى الشاكر في حق الله تعالى المجازي على الطاعة بالشواب ، ففى التعبير به مبالغة في الإحسان إلى العباد ، ومعلوم أن الشاكر في اللغة هو المظهر للإنعام عليه ، وذلك في حق الله تعالى محال ، وقوله « عليم به » أى بأحواله ، فلا ينقص من أجره شيئاً ، وهذا علة لجواب الشرط قائم مقامه ، فكأنه قال : ومن تطوع خيراً جزاه وأثابه فإن الله شاكر عليم (٤)) فدل على أن صفة الشكر وقعت موقع الجزاء لتطوعهم بالخير ، فوجب أن تتقدم ، ولو عكس النظم لأوهم تقدم العليم التعريض بهم ، وأن الله يجازي منهم من علم حسن نيته وإخلاصه ، وليس ذلك بمراد .

لأن من يتتبع ترتيب الصفات في تذييل الآيات يرى عجباً ، ويوقن أن .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٥٨
(٤) الفتوحات الإلهية ١ / ١٢٦

(١) سورة البقرة آية ١٥٨
(٣) المفردات ٢٦٦

وراءها من أسرار الإعجاز ما لا تحيط به الأقلام ، وتقتصر عن إدراك كنهه
الأفهام . فمن بحاجة إلى مداومة النظر والتدبر بالصبر للوقوف على بعض
أسرارها وعدم الركون إلى اليأس ، والإسراع إلى القول بتناسب
الفواصل .

فالقرآن يغير ترتيب الصفات في مشتببه النظم الحكيم ، فيقدم إحدى
صفتين في موضع ، ويقدم الأخرى في موضع آخر ، وكنتا الصفتين تحقق
تناسب الفواصل تقدمت أو تأخرت ، مثل : العليم الحكيم ، فهما من روى
واحد ، هو الميم المسبوقة بياء المد ، ولا تتغير الفاصلة بتغير ترتيبها ، وقد
اجتمعت هاتان الصفتان في القرآن ستا وثلاثين مرة ، تقدمت العليم في
ثلاثين منها ، وتقدمت « الحكيم » في ستة مواضع ، وليس ثمة مجال للقول
بمراعاة الفواصل .

وحين تتأمل كل موضع في سياقه نجد من دواعي النظم ما يوجب تقدم
المقدم ، وأي محاولة لعكس الترتيب إنما تذهب ببلاعة النظم وسر إعجازه .
ولنأخذ مثلاً من مواضع تقدم العليم ، قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء
كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .
قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (١) » ، فهل يمكن
والحديث كله في سياق العلم الذي منحه الله تعالى آدم ، ورفع به قدره حتى
تتبين الملائكة ما كان قد خفى عليهما من سر استخلاف الله له ، وأمرهم
بالسجود له ؟ هل يمكن أن يقدم الوصف بالحكيم في مثل هذا السياق ؟
أو ليست الحكمة قد جاءت تسليماً من الملائكة بأن الله تعالى كان بالغ الحكمة
في اختيار ماعليه من صلاح الخليفة لما استخلف فيه ؟

وهذا قوله تعالى : « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل
فأمكن منهم والله عليم حكيم (٢) » ، يربط الله فيه على قلب الرسول عليه

(٢) سورة الانفال آية ٧١

(١) سورة البقرة آية ٣٢

السلام ، ويطمئنه بأنه سيكون عينه التي تكشف له ما يدبره أعداؤه من كيد ومكر ، فهو المطلع على أسرارهم ، العليم بما تكبته صدورهم ، ويذكره بمصير الذين خانوا من قبل فكسبه الله تعالى من رقابهم ، والخيانة من شأنها أن تحاط بالكتمان ، والخائف يدبر أمره بليل ، فكان تقديم صفة العليم التي لا يخفى بها على آله شيء ، هي الأنسب بهذا السياق .

ثم انظر كيف تقدم الوصف بالعلم ، حين انكشفت حقيقة رؤيا يوسف عليه السلام ، وعلم ما كان خافيا منها في قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزعت الشيطان بنى وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (١) » .

أما المواضع التي تقدم فيها وصف الحكيم ، فإنها جميعا تدل على إطلاق مشيئته في أفعاله ، مما يخفى معه وجه الحكمة على خلقه ، فكان تقديم ما يدل على وصفه بغاية الإحكام دعوة للعقل إلى تفويض الأمر لمن خلق فيها يتقاصر عن إدراكه ، وتغيب عنه حكمته ، ففيما أدركه دليل على ما فاتته .

فهذه منازل عباده قدّرها متفاوتة ، يرفع درجات من يشاء ، ويخفض من يشاء ، وهو الحكيم فيما يرفع ويخفض . « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه زرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم (٢) » ، تقدم وصف الحكيم ، لأنه الأهم في تعليل إطلاق مشيئته ، وجاء العليم بمثابة التأكيد لإحكام أفعاله ، لأنه يفعلها عن علم محيط بمن يرفع ومن يخفض .

وهذه إرادته المطلقة التي تحمكت في الخلق إيجاداً وإعداماً ، هداية وإضلالاً ، تتحكم في جزاء الضالين يوم القيامة ، فتعاقب بالتخليد في النار من تشاء ، وتقطع هذا العقاب عن تشاء ، وهي في كل ذلك تحيطها حكمة الحكيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : « ويوم يحشرهم جميعاً بامعشر الجن

(٢) سررة الانعام آية ٨٣

(١) سورة يوسف آية ١٠٠

قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم، (١).

فهل يمكن أن يقدم وصف العليم فى تعليل أفعال خفى فيها وجه الحكمة فى التمييز بين المتعاقبين؟ إن العلم حين يأتى عقب الحكمة هنا يعيد إلى العقل رشده، لتطمئن قلوب العباد إلى أن حكيمته فى أفعاله وراءها علم بما خفى ودق من أحوال خلفه. فهو الحكيم لأنه العليم، هذا التعليل بالحكمة والعلم فيما شاء إخراجهم من النار كان حرماً بأن بغيننا عن جدل طويل حول الاستثناء فى الآية، ومن هم المستثنون؟ ومن ماذا يستثنون؟ مما يجب أن نفوض فيه الأمر للحكيم العليم.

وفى قصة رسل إبراهيم حين بشره بإسحاق، وجوابهم لامرأته حين تعجبت من أن تلده وهى عجوز عقيم، مثل واضح لبلاغة النظم الكريم فى ترتيب الألفاظ وفقاً لحركة النفس والعقل فى استقباليهما للبعثى وتصورها. قال تعالى: «وبشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك لأنه هو الحكيم العليم (٢)».

لقد كانت دهشة سارة كما رصدتها القرآن بالصوت والصورة، فانطلق لسانها بما جاش فى صدرها، وتملكها من الدهول والحيرة، كانت استعظاماً للحدث على ما جرت به العادة، لا استعظامه على المحدث القدير، فاكتفى الملائكة بردد هذا الحدث العظيم إلى المحدث الأعظم قالوا كذلك قال ربك، وكأنهم أرادوا أن يفيقوها من دهشتها، وينقلوها من عظمة الحدث إلى عظمة المحدث، وهذا كاف لذهاب حيرتها وتعجبها. أما لماذا كان هذا بعد هذه السن وآفة العقم اللتين يستحيل بهما فى دنيا الناس أن يكون ما كان، فذلك مقتضى الحكمة التى نفوض أمرها إلى الله فيما لا تطوله العقول. فالوصف

بالحكيم حين يتقدم فى هذا الموضوع إنما يواكب حركة النفس والعقل فى تطلعهما إلى الإجابة عما يجول فى النفس، ويدور به الخاطر .

بمثل هذا الإحكام فى ترتيب الصفات ننظر إلى تقديم « الغفور » على « الرحيم » فى أكثر من سبعين موضعاً من فواصل القرآن ، حيث يجيء الوصف بالرحيم تعليلاً لمغفرته التى وسعت ذنوب العباد جليلها ودقيقها ، ووسعت ذواتهم ، مؤمنهم وعاصيهم ، فهو واسع المغفرة عظيمها ، يستر ذنوب عباده ، ويتجاوز عن خطاياهم ، لأنه عظيم الرحمة بمن خلق ، وهكذا جاء وصف الرحمة متأخراً أبداً إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (١) » .

وفى البحث عن سر هذه المخالفة أسرع المفسرون إلى الفاصلة ، يعلقون بها هذه المغايرة ، حين عز عليهم وجود سبب غيرها ، أو وجدوا سبباً غير مقنع . يقول الشهاب : (قدم الرحمة لأنها منشأ المغفرة ، أو للفاصلة (٢)) وكان الشهاب أحسن بضعف تعليله من المعنى ، فلجأ إلى الفاصلة ، لأن كون الرحمة منشأ المغفرة يتوارد عليه أن المغفرة قدمت فى جميع المواضع التى اقترنت فيها بالرحمة ، عدا هذا الموضع ، فلماذا لم تراعى هذه النسبة فيها جميعاً ؟

أما تعليله بمراعاة الفاصلة ، فينقضه بجيء الغفور متقدماً فى موضع يتطلب تناسب الفواصل تأخيره ، لأن الفاصلة قبله على روى الراء ، بل لأنها نفس الفاصلة التى سنقت آية سبباً ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند

(٢) حاشية الشهاب ١٢٨٧/٩

(١) -سوره سبأ ١ -٢-

الله أنقاكم إن الله هليم خبير قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا
أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من
أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم (١) .

فالفصلة التي سبقت « الرحيم » وهي « خبير » هي نفسها التي سبقت
« الغفور » في سبأ ، فلو كان التقديم للشاكلة لقدمت هنا كما قدمت هناك .

أرى - والله أعلم بمراده - أن الغفور يتقدم في كل موطن يهمس فيه
السيلق بوقوع المعاصي وكفران النعم ، والدعوة إلى التوبة والاستغفار من
الذنوب ، فتسكون المبادرة بالمغفرة لطمأننة المذنبين والخطائين إلى أن يد الله
ممدودة إليهم ، تعفو عنهم وتستر خطاياهم ، لأنه رحيم بهم ، كما نجد في مثل
قوله تعالى : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور
رحيم (٢) » « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
إن الله يفر الذنوب جميعا لأنه هو الغفور الرحيم (٣) » « قالوا يا أبانا استغفر
لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى لأنه هو الغفور
الرحيم (٤) » .

أما الآية التي تقدمت فيها الرحمة من سورة سبأ ، فهي في سياق يعدد الله
تعالى فيه نعمه على خلقه : المستوجبة للحمد والشكر عليها . فيذكر إحكام أمره
وهيئته على ما في السموات والأرض ، إيجادا وإعداما ، إحياء وأمانة ،
وتدبير أمر الكون وتسخير ما فيه للإنسان بما يودعه في أرضه من أسباب
النتع ، وأظرفها ما يتخلق في بطنها من أجنة النبات ، فتخرجه حيا ناضرا ،
يحيا به الإنسان والحيوان ، وما يمدها به من أسباب النماء منزلا بقدر من
السماء . وغير ذلك مما أودع الله تعالى باطن الأرض ، سيظل العلم يكشف عن
بعضها إلى أن يلقي الناس رب الناس . هذه النعم الجليلة مصدرها ودوام

(٢) سورة آل عمران ٨٩

(١) سورة الحجرات ١٣ - ١٤

(٤) سورة يوسف ٩٧ - ٩٨

(٣) سورة الزمر ٥٣

بقائها رحمة الله الواسعة بخلقه مع مقابلتهم لها بالكفران والنسيان ، ولو أمسك الله تعالى واحداً من مظاهر رحمته وهو الماء الذي ينزله من السماء لما بقي على ظهرها من دابة ، لهذا جعل الله تعالى الرياح التي تسوق الأمطار أثراً من آثار رحمته ، وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته (١) . . .
فتقديم الرحمة هو الأنسب بهذا السياق ، حيث كانت سبب نعمه ، وهي بعد سبب في تجاوزه عن أنعم عليهم إن هم قصرُوا في شكره عليها .

وللسبب وجه في هذا التقديم لا يبعد عن بلاغة النظم ، لأنه يجعل الترتيب ضرباً من الترتيب بذكر الخاص بعد العام . يقول (وأما قوله وهو الرحيم الغفور ، في سبأ . فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة ، إما بالفضل والكمال ، وإما بالطبع ، لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم ، والعموم بالطبع قبل الخصوص (٢)) .

وما اتخذ دليلاً على مراعاة الفاصلة في الترتيب بين الصفات ، تقديم الرسول على النبي في قوله عز وجل : « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً (٢) » .

وقوله : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً (٤) » .

يقول الشيخ عبد الرحمن تاج في معرض تدليله على أن القرآن يقدم ويؤخر لتوخي التناسب بين الفواصل : (وذلك أن الرسالة أخص من النبوة ، والمعهود في الكلام المرسل الذي يجمع بين عام وخاص أن يقدم الأول على الثاني ، لكنه قدم في هاتين الآيتين الخاص على العام ، مراعاة

(١) سورة الأعراف ٥٧

(٢) نتائج الفكر ص ٢٧١

(٤) سورة مريم ٥٤

(٢) سورة مريم ٥١

لتناسب الفواصل مع اتحاد المعنى ، فإن السورة بديت على فاصلة الياء المشددة التي بعدها ألف (١) .

قبل أن نعرض لبيان السر في تقديم الرسول على النبي تقدم الدليل على سقوط القول بمرآة الفاصلة من قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل (٢) » ، وقوله فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي (٣) . وفيهما قدم الرسول على النبي في غير الفواصل ، فالقول بأن تقديم الرسول للفاصلة في قوله « وكان رسولا نبيا » يفترق بداية إلى الدقة في تنبئ مواطن اجتماعهما في الذكر الحكيم .

و حين فسننطق المعاجم بحثا عن معنى الرسول والنبي نجد الرسول في اللغة (الذي يتابع أخبار الذي بعثه ، أخذنا من قولهم : جاء الإبل رسلا ، أي متتابعة (٤)) .

ويقول الراغب في تفسير النبي : (النبوة سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة غلظتهم في أمر معادهم ومعاشهم ، والنبي لكونه منبئا بما تسكن إليه العقول الذككية (٥)) واشتقاق النبي إما من النبأ بمعنى أنه المخبر عن الله تعالى ، أو من النبوة والنباءة بمعنى الارتفاع .

وبالمقارنة بين مدلولي اللفظين لغويا نجد الرسول يطلق على من يتحمل خبرا بمن أرسله إلى من أرسل إليه ، سواء كان المرسل هو الله أم غيره ، أما النبي فإن المخبر عن الله تعالى ، وهو بهذا أخص من الرسول . وعليه يكون تقديم الرسول على النبي ماضيا على الأصل في الترقى من العام إلى الخاص ، وإذا كان اشتقاق النبي من النبوة كان الوصف بالنبي بعد الرسول

(١) الشيخ عبد الرحمن وبحوث قرآنية ١١٩

(٢) سورة الاعراف آية ١٥٧ (٣) سورة الاعراف آية ١٥٨

(٤) لسان العرب مادة : رسل .

(٥) المفردات ٤٨٢

مشير إلى علو منزلته بين الرسل ، على ما جاء في وصف إدريس عليه السلام « ورفعناه مكانا عليا (١) » . وإلى هذين الوجهين أشار الشهاب في شرحه لقول البيضاوي : « أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه » . قال الشهاب : (إشارة إلى أن الرسول بمعنى المرسل ، وقوله « أنبأهم أى أخبرهم » إشارة إلى أن النبي بمعنى المنبئ عن الله بالتوحيد والشرائع ، وأن أصله الهمزة فأبدلت في النبي والنبوة ، ولو قيل هنا إنه من النبوة بدليل قوله « مكانا عليا ، والمعنى : رفيع القدر على غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليكون بمعنى آخر أخص كان أظهر .. ويحمل أن يريد أن المراد بالرسول والنبي هما معناهما اللغوي ، وهو المرسل من الله ، والمنبئ عن الله ، وليس كل مرسل نبي ، لأنه قد يرسل بعطية ومكتوب ، فلذا قدم (٢)) .

وبالرغم من الاختلاف حول الوجه الذي كان به الرسول أخص ، فإنه حين يجمع بينهما يحمل كل منهما دلالة اللغوية ، فيكون في الإرسال معنى حمل الرسالة وتبليغها ، ويكون في النبوة معنى الخبر الصادق كما هو أصل النبأ على ما صرح به الراغب : (النبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعري عن الكذب ، كالتواتر ، وخبر الله تعالى ، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام (٣)) فكأنه قال : وكان مرسلنا من الله مبلغا عنه بالخبر الصادق .

أما على تفسيرهما في اصطلاح الشرع بما يدل على عموم النبوة وخصوص الرسالة ، لأن الرسول مأمور بالتبليغ ودعوة الخلق ، بخلاف النبي ، أو لأنه خص بكتاب أنزل معه ، فقد ذهب القرطبي إلى أن الرسول قدم اهتماما بمعنى الرسالة (٤) وهو وجه في التقديم غير عزيز في لسان العرب .

(١) سورة مريم آية ٧٥

(٢) حاشية الشهاب ٦ / ١٦٤

(٣) المفردات ٤٨١

(٤) القرطبي ٤ / ٣٤ ٢٧

وهذا مثل جلي فيما اجتمع من الصفات في تذييل الآيات ، بغير القرآن في ترتيبها بما يحقق تناسب المقاطع حتى يخيل إليك أنه من أجل هذا التناسب كان التغيير، فإذا تأملت السياق ومقتضياته، أيقنت أن المغايرة ما كانت إلا استجابة للعاني والأغراض .

وصف الله ذاته بالعلي والكبير ، وكان الوصف « بالعلي » يتقدم فيقع « الكبير » فاصلة ، يتعاقب رويها مع الفواصل ، كما في قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير (١) » . وقوله : « ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير (٢) » ، وقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير (٣) » .

وحين بنيت الفواصل في سورة النساء على الألف المندودة المنقلبة عن التثوين ، المسبوقة بياء المدّ جاء وصف « الكبير » متناغما مع هذا الإيقاع « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا (٤) » .

وفي سورة الرهد حيث كانت الفاصلة مبنية على حرف صحيح ساكن عند الوقف بعد مد بالألف غوير ترتيب الوصفين ، وغويرت الصيغة من العلي إلى « المتعال » ، فتناغمت مع الفواصل قبلها وبعدها « الله يعلم ما تحمل

(٢) سورة الحج آية ٦١ - ٦٢

(١) سورة لقمان آية ٢٩ - ٣٠

(٤) سورة النساء ٣٤ - ٣٥

(٣) سورة سبأ آية ٢٢ - ٢٣

كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (١) .

فأولاً تقدم العلى في جميع المواضع عدا الموضع الأخير مع ملامته للفواصل ، والعدول عن هذا الترتيب في آية الرعد وحدها ، وهو الذى تحقق به تناسب الفواصل يبدو كما لو كان القرآن يعتمد إلى هذا التوافق الموسيقى ، ويغير من أجله .

فإذا عدنا إلى الآيات التى تقدم فيها العلى وجدناها فى سياق يبطل الشرك ويدحضه ويستبين فيه بالمشركين ومن أشركوهم معه . فكان تقديم الوصف الذى يظهر الاستعلاء على من اتخذوهم من دون الله أزداداً هو الأليق بهذا السياق على ما تقتضى به قاعدة تقديم الأهم . الآية الوحيدة التى تقدم فيها العلى ، فى غير هذا السياق هى آية النساء ، وفيها يصف الله تعالى طرق العلاج لإصلاح النساء اللواتى يخرجن عن طاعة أزواجهن ، وحتى تكون هذه الطرق وسائل للعلاج ، لا أدوات لإذلال النساء والتعالى عليهن ، جاء قوله تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ، فتجاوب تقديم العلى مع استعلاء الطغاة من الرجال إذلالاً بقدرتهم ، وبغيا على من بأيديهم من النساء ، وتجاوب كذلك مع صريح دلالة حرف الاستعلاء فى قوله « فلا تبغوا عليهن ، فالموضع للعلى أصالة ، وجاء « الكبير ، تذكيراً لهذا المستعلى الباغى ، بقدره الله ، الذى شرع هذه الوسائل من العلاج ، ولا يرضى بتجاوزها طغياناً وكبراً .

أما الموضع الذى عكس فيه الترتيب من سورة الرعد فقد جاء فى مقام الإذلال بكمال قدرة الله وتعالیه عما يصفه به المشركون ، بعد أن ساق الله من بداية السورة أمثلة لكمال قدرته . بدأها بقوله : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها (٢) ، وعدد مظاهر خلقه فى السماء ، من الشمس والقمر ،

(٢) سورة الرعد آية ٢

(١) سورة الرعد آية ٩

وما ترتب عليها من تعاقب الليل والنهار ، وبسط الحديث عن مظاهر خلقه في الأرض من الأنهار والجبال والثمار والزرع ، وأنهاها بخلق الإنسان ، وعلمه بأحوال الأجنة وأطوارها ، وبما خفي ودق من أسرار الكون ، تخال ذلك تهديد المشركين المنكرين للبعث المستخفين بعذاب الله ، المستعجلين له ، فجاء تقديم « الكبير » الدال على عظمة الخالق وكبريائه متجاوبا مع سياق يعهد مظاهر قدرته ، ثم أعقبه وصف « المتعال » بهذه الصفة الدالة على كمال العلو ، لأن التفاعل فيها للبالغه كما قال الراغب (١) ، لتزويه الله تعالى عما وصفوه به من اتخاذه الولد وغير ذلك مما يقدر في كمال قدرته وعظيم شأنه ، وهو ما أشار إليه الطيبي فيما نقله الشهاب : (إن معنى الكبير المتعال بالنظر لما وقع بعده وهو « عالم الغيب والشهادة » : هو العظيم الشأن الذى يكبر عن صفات المخلوقين ، ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ما سبق من قوله « ما تحمل كل أنثى » إلخ مع إفادته التزويه عما يزعم النصارى والمشركون (٢)) فإذا كانت صفة المتعال إلى دلالتها على كمال الرفعة تشير كذلك إلى تزويه الله تعالى عما وصفه به أراذل خلقه ، فإن موقعها من النظم يكون بعد إثبات كمال عظمتها وقدرته التي دل عليها وصف « الكبير » .

ومن روائع اجتماع الصفات ومخالفة ترتيبها في فواصل القرآن بما يحقق التجانس في اللفظ والمعنى قوله تعالى حكاية للحوار الذى دار بين ملك مصر ويوسف عليه السلام : « وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى فلما كبه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم (٣) » . قدم الملك ما يفيد العلم على الأمانة ، وعكس يوسف عليه السلام الترتيب ، فقدم ما يفيد الأمانة على العلم ، وتحقق بتقديم « حفيظ » في كلام يوسف التقارب في الفواصل بين النون والميم ، والاتفاق في الردف وهو الياء .

(٢) حاشية الشهاب ٥ / ٢٢٣

(١) المفردات ٣٤٥

(٣) سورة يوسف آية ٥٤ - ٥٥

وحين نبحث عن وجه دلالي لهذه المغايرة، نرى أن الملك ضمن وصفه «مكين» - ومعناه: ذو مكانة ومنزلة - وصفه بالعلم، لأن يوسف لم يصل إلى هذه المكانة إلا بما أظهره من العلم في تأويله رؤيا الملك، ورسمه خطة دقيقة للوزانة العامة في سنى الجذب، ليجنب الأمة أخطار المجاعة حتى تتخطى هذه الأزمة، والعلم وحسن التخطيط هو المؤهل الأول لتولى مثل هذه الوزارة، فقدمه الملك على الوصف بالأمانة، لأنه الأهم في فكر ملك حريص على الإفادة من علم يوسف في ظروف حرجة تمر بها أمته، ويقع الوصف بالأمانة مبالغاً في حرصه على التمسك به، وجدارته بهذا المنصب.

أما يوسف عليه السلام فقد كان تقديم ما يدل على أمانته هو الأهم عنده، لأنه بعد أن استشف من كلام الملك رغبته في الاستعانة في أمور الملك وهو على وشك أن يستوزره، بادر بطلب وزارة الخزانة وهى وزارة تتعلق بالأموال العامة، وطلبها بوجه خاسر ربما يثير شبهة في الإفادة منها، فكانت مبادرته بتقديم وصف الخفيظ لدفع مثل هذا التوهم، وتأكيد نزاهته، والإشعار بأر لولاية الأموال تحتاج في المقام الأول إلى ذمم نظيفة، وضمان حية تسبق حاجتها إلى الخبرة والعلم، فصاحب اليد النظيفة إذا ما تولى الأمور المالية، وكان قليل العلم، أمكنه سد هذا النقص بالاستعانة بذوى الخبرة، أما الخيانة فخطرها على الأموال العامة أشد من أخطار الجهل.

وذلك ما أراد يوسف عليه السلام بإشراقة النبوة أن يلفت إليه نظر ولاة الأمور في اختيار عمالهم، الذين يلون لهم أعمالاً تتعلق بأموال الأمة.

أفيكون بعد ذلك من الإنصاف في القول، الزعم بأن الغرض من التقديم والتأخير مجرد رعاية الفواصل ؟ !!

تقديم القيود

ذكر سيبويه من تقديم الظرف للعناية قوله تعالى : « ولم يكن له كفوا أحد (١) » ثم قال : (وأهل الجفاء من العرب يقولون : ولم يكن كفوا له أحد (٢)) فأوماً بذلك إلى أن الوقوع على أغراض التقديم بحاجة إلى رقة حس ، وصفاء طبع ، وأن إدراك المعاني اللطيفة المختبئة في أكسيتها من الألفاظ ، ومواكبة حركتها في مواقعها من النسق لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق السليمة ، والأفهام الواعية ، لذلك كانت جفوة الطبع ، ونبوة الذوق سبب غياب سر التقديم عن جفاة الأعراب في الآية الكريمة .

والمأمل لنظم الآية واحتمالات التقديم والتأخير فيها يتبدى له ثلاث صور متغايرة في نسقها ودلالاتها ، أبلغها ما عليه النظم الحكيم .

الصورة الأولى : أن يأتي الترتيب على الأصل من تقديم الاسم على الخبر ، وتأخير الظرف عما تعلق به . فيقال : ولم يكن أحد كفوا له ، ويكون الغرض حينئذ نفي وجود المكافئ .

والثانية : يتقدم فيها الخبر وما تعلق به من الظرف على الاسم ، فيقال : ولم يكن كفوا له أحد ، كما كان الأعراب يقولون ، فيتسلط النفي على المكافأة والمساواة .

والثالثة : ما جاء به النظم الحكيم من تقديم الظرف على متعلقه ، وتقديمهما معاً على الاسم ، وفيه يكون نفي المكافأة والمساواة منصبا على الذات .

(٢) الكتاب ١/٥٦

(١) سورة الإخلاص آية ٣

المقدسة، ليشعر من أول الأمر بأنه تعالى بما لا يتصور له مكافئ . وذلك ما قصد إليه النص القرآني، وإلى ذلك أشار الزمخشري، فقال: (هذا الكلام إنما سبق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناؤه، وأحقه بالتقدم وأحراه (١))

في عبارة الزمخشري هذه هدم لهذا التقسيم الذي جرى عليه المفسرون وأهل البيان منهم، يجعل التقديم لأحد غرضين . التخصيص أو الاهتمام، وكان أحدهما نقيض الآخر، فتقديم الظرف (٢) في الآية دال على التخصيص قطعاً، ومع ذلك يرى الزمخشري أنه أفاد الاهتمام، لأنه مصب الغرض ومركزه في نفي المكافأة عن ذات الله خصوصاً .

وقد سبق الدكتور أبو موسى إلى تجلية رأى الزمخشري في العلاقة بين الاهتمام والتخصيص حين رد على أبي حيان، الذي ذهب إلى أن التقديم في قوله تعالى: « إياك نعبد » للاهتمام وليس لتخصيص الذي قال به الزمخشري: (على أننا لا نرى في كلام سيبويه ما يمرض كلام الزمخشري، لأن سيبويه يثبت العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم، وهذه العناية لا تعنى الصورة لا تفيد التخصيص، لأنه لا منافاة بينهما، ومن المقرر أن النكات لا تتزاحم وليس في كلام سيبويه ما يرفض دلالة الاختصاص، كما أنه ليس في كلام الزمخشري ما يرفض دلالة العناية والاهتمام (٣)) .

بل إنني أذهب إلى أن الزمخشري كان صريحاً في جعل التخصيص ضرباً من الاهتمام في كثير من النصوص ومنها هذا النص الذي نقلناه عنه .

وحين يقول ابن الصانع وأبو حيان إن الظرف تقدم في هذه الآية

(١) الكشاف ٢٩٩/٤

(٢) يطلق النحاة والفرييون اسم الظرف على ما يشمل المجرور كما هنا .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٤٠ .

لتحقيق التناسب في الفواصل فإن ذوباً من إعجاز النظم يتفكك من الأذواق .
كما أن الوقوف في بيان الغرض من التقديم عند القول بالاختصاص ،
أو الاهتمام دون البحث عن سر هذا الاهتمام والتخصيص قصور عن
استكشاف أسرار النظم .

وانضرب لذلك مثلاً ما جاء في دعاء موسى عليه السلام « كي نسبحك
كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً (١) » ، قال أبو السعود : إن تقديم
المجرور « بنا » على متعلقه « بصيراً » لمراعاة الفواصل (٢) ، وكأنه رأى أن
التخصيص لا يتأتى فيه ، لأن بصر الله تعالى لا يغيب عن شيء من خلقه ، فلا يصح
حصره في المتكلم ، لكنك حين تنعم النظر ترى أن البصر الذي عناه موسى
هو ما خصه الله به من العناية واللفظ في كل أطوار حياته ، منذ تعلق إرادة
الله بوجوده ، إلى الوقت الذي صدح فيه بهذا الدعاء ، كما هو صريح قوله تعالى
امتنا عليه : « ولتصنع على عيني » فكان التقديم وحده هو الذي يظهر إحساس
موسى بفضل الله عليه وما خصه به من الفضل المستوجب لعظيم الشكر والذكر .

ومثله ما جاء في قوله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا
به عالمين (٣) » ، فإن علم الله تعالى محيط بكل خلقه ، ولا سبيل إلى تخصيصه
بخليله ، فإذا دقت النظر في قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل »
أدركت أن العلم الذي خص به إبراهيم عليه السلام مرتبط بمنحة النبوة ،
وفيوضات الهدى التي غمر الله بها نبيه ، اختصاص بموهلات الرسالة ، وعلم الله
تعالى بصلاحية المرسل لتحملها وأدائها ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ذلك ما نجد ظلاله في قوله تعالى ممتنا على هذه الأمة بما يسره في شريعته ،
وفتح أمام مذنبها أبواب التوبة بالإقلاع عن الذنب واستغفار الرب « يريد
الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

(٢) تفسير أبي السعود ١١/٦

(١) سورة طه آية ٢٣ - ٢٥

(٣) سورة الانبياء آية ٥١

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً (١) ، حيث يبدو أن تقديم المجرور « بكم » على « رحيماً » للمحافظة على السجع ، لأن رحمة الله تظل كل الأحياء من خلقه ، فلا مجال لحصرها في هذه الأمة ، فإذا ما قرأت قوله « ولا تقتلوا أنفسكم » ووضعت يازام قوله تعالى خطاباً لبنى إسرائيل « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » موجبا عليهم قتل النفس المذنبه ، تحقيقاً للتوبة أدركت سر تخصيص أمتنا بفيضات رحمته حين جعل التوبة في الإقلاع عن الذنب ، والامتغفار منه ، وإيسر سوى التقديم ما يشعر بجلال هذه الرحمة . فإذا أردت أن تصوغ ذلك في صورة قصر إضافي يقابل فيه بين يسر الشريعة في ديننا والكلفة والمشقة فيما أنزل على بنى إسرائيل فقد وفيت حق الصناعة .

وتأمل معي كيف يشي تقديم اللفظ بما أسرته أخت موسى وبالغت في إخفائه وهي تقصه ، فيما حكاه الله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون (٢) » .

لم يستطع حذرهما في قصه ، وفي عرضها على آل فرعون أن تدلهم على من يكفله ، لم يستطع إخفاء مشاعرهما المتوهجة ، ولهفتها على أخيها ، فوشى لسانها بمكنون ضميرها ، حين قالت : « وهم له ناصحون » فأشعرت بتقديمها للمجرور ، وما يدل عليه من اختصاص نصحهم به ، أنهم أهل وذووه ، حتى شكوا في أمرها ، وقالوا لها ما حكاه ابن عباس رضي الله عنهما وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه (٣) ؟

فلو أنها قالت : « وهم ناصحون له » لما كان هذا الشك ، لأن شأن المراضع من بنى إسرائيل أن ينصحن لمن يرضعنه ، ابتغاء الحصول على الأجر ، وخاصة

(٢) - سورة القصص ١١ - ١٢

(١) سورة النساء ٢٨ - ٢٩

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٠

إذا كان الرضيع من بيت الملك ، أما أن يكون نصحبهم خالصا له على ما أفاده التقديم فذلك ما أثار الشك ، مما جعل أخت موسى تتخلص من ذلك بجعل الضمير في « له » للملك ، لا للطفل ، قائلة : (ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك ، فتخلصت منهم بهذا التأويل) (١) .

ونقرأ قوله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا » (٢) فيرونا تقديم المفعول على فعل القتل وتأخيره عن فعل الأسر ، مع أن الغرض هو تفصيل المفعول وتقسيمه مما يقتضى تمام التناسب فيه أن يقدم في الجملتين ، مما دفع المفسرين إلى القول بأن التقديم لمراعاة الفاصلة .

وأرى — والله أعلم بما أراد — أن تقديم مفعول القتل ، وتأخير مفعول الأسر يلبح إلى أن هدف المؤمن الأول ، هو كسر شوكة عدوه ، والقضاء على كل وسائل مقاومته ، ولا يتحقق ذلك بغير القتل . أما الأسر فليس الغاية التي يتطلع إليها المقاتل المسلم ، خاصة بعد ذلك العتاب لنبي الله والمؤمنين في غزوة بدر على اقتدائهم الأسرى ، فكان تقديم الأول ، وتأخير الثاني إشعارا بالتفاوت بينهما في غايات المؤمن وأهدافه . ثم إن هذه الآية نزلت في نبي قريظة ، وقد حكم الله تعالى فيهم على لسان سعد بن معاذ بقتل الرجال وسبي العيال والذرية : فكان الفريق المقتول هو الذي من أجله تحركت جموع المسلمين ، وللقضاء عليه تلاقى قلوبهم وأهدافهم .

أغراض التقديم في القيود

قلت : إن القول بالتقديم فيها للتخصيص أو الاهتمام ليس كشفا عن الغرض ، ولا ينانا لسر التقديم ، فتخصيص الفعل وما في حكمه بقيد من القيود لا بد أن يسوق إليه غرض من أغراض النظم يحتاج إلى الكشف

(٢) سورة الاحزاب آية ٢٦

(١) المحرر الوجيز ١٢/١٤٩

عنه، كما أن الاهتمام بالقيود وتقديمه يتطلب بيان المدافع إلى هذا الاهتمام ، ونحن حين ننتهي في بيان وجه البلاغة من التقديم عند القول بالاهتمام ، فإنما نرتد إلى عصر ما قبل عبد القاهر ، ونكون بمن عنانهم بقوله : (وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : « إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم ، وتخليهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهو توار الخطب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف . ولم ترظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه) (١) .

هذا ما لم يتنبه له كثير من المفسرين حين يكتبون في تقديم القيود بالقول إنها قدمت للاهتمام أو للتخصيص . لذلك سوف نتناول بعض الأغراض من تقديم القيود سواء منها ما قيل فيه بالاهتمام وما قيل فيه بالاختصاص .

زيادة التفريع :

من ذلك ما أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (٢) فالظاهر أن الاهتداء بالنجم ليس وقفاً على المخاطبين من العرب ، كما أن النجم ليس وحده وسيلة الاهتداء ، فتقديم المسند إليه ، وتقديم القيد عليه مما لا يظهر وجه التخصيص فيه ، فكان الزمخشري سابقاً إلى الكشف عن وجهه : (فإن قلت : قوله « وبالنجم هم يهتدون » مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه النجم ، مقحم فيه « هم » كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فمن المراد بهم ؟ قلت : كأنه أراد قريشه ، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسائرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لخصصوا) (٣) .

(٢) سورة النحل آية ١٦

(١) دلائل الإعجاز ١٠٨

(٣) الكشف ٤٠٥ / ٢

التخصيص بتقديم النجم جار على سبيل التجوز ، يجعل كل ما عداه من وسائل الاهتداء فى حكم المهمل ، تعظيما لهذه الآية من آيات الله فى قوم من البدو كل وسائل عليهم ليلا تعتمد على النجوم ومطالعتها ، وهم بقرون بأنها من خلق الله ، فجدير بهم أن يشكروا الخالق على نعمه العظيمة .

وفى قوله تعالى « إن الإنسان لركنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد » (١) يقول الشهاب الخفاجى بيانا للغرض من تقديم الجار والمجرور « لربه » على متملقه : (قدم لفاصلة ، لا للتخصيص) (٢) وكأنه يرد على قول الزمخشري : (إنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران ، لأن تفريطه فى شكر نعمة غير الله تفريط قريب ، لمقاربة النعمة ، لأن أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن عظامها فى جنب نعمة الله قليلة ضئيلة) (٣) كفران نعمة الله فى توجيه الزمخشري هو الكفران ، وما دونه لا يعتد به ، لما أن نعم غير الله بحجاب نعمه لا تستحق الذكر ، فهو قصر مجازى أريد به تعظيم الكفر بنعم الله ، والتشجيع على الجاحدين بها . فالتخصيص هنا شبيه به فى قوله تعالى : « إنما يخش الله من عباده العلماء » (٤) فى عدم الاعتداد بخشية من سواهم ، تعظيما لخشية العلماء .

والشهاب حين ينكر دلالة التقديم على القصر إنما ينكر القصر التحقيقى لا المجازى ، ولعله يرى أن مقام الذم يقتضى تعميم الجحود والنكران لنعم الله ونعم عباده ، إلا أن الزمخشري كان أمس رحما ببلاغة النظم الحكيم لأن مقام التشجيع على جحود نعم الله تعالى لا ينهض به غير عدم الاعتداد بكل جحود سواه . وقد مضت الآيات مؤكدة على هذه الغاية ، فقدم المجرور فى الآيتين التاليتين : « على ذلك » « لحب الخير » حتى تكون شهادة

(٢) حاشية الشهاب ٣٩٢/٨

(٤) سورة فاطر آية ٢٨

(١) سورة العاديات آية ٦ - ٨

(٣) الكشاف ٢٧٨/٤

الإنسان بنفسه على جحوده هي الشهادة لغرابتها : وكان كل شهادة سواها ليست بشهادة ، وهو ما يتلاءم مع صيغة المبالغة « شهيد » التي أوثرت على اسم الفاعل « شاهد » ، كما اعتبر القرآن حبه للبال هو الحب الذي يتوارى خلفه كل حب ، فكشف التقديم عن هذه الغريزة المتسلطة على طبع البخيل والتي تجعل حبه للبال يغلب حبه لنفسه .

فالتخصيص هنا مجازى استدعاءه مقام تعظيم الكفران بنعم الله ، والشح بما آفاه الله على عبده ليكون أداة نفع للناس .

وهذا هو السر في تقديم المجرور من قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للذيقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون (١) » .

تقديم المجرور في قوله « أفأنتم له منكرون » قصد به التشنيع على هؤلاء المشركين الذين خصوا الذكر المبارك ، المنزل على محمد عليه السلام بهذا الإنكار والجحود ، في حين أنهم لم ينكروا ما بين يدي أهل الكتاب من التوراة ، وكأنه يقول : ما أعجب أمركم أيها العرب ، وأنتم تقابلون بكل الإنكار ما أنزل الله على نبيكم ، ولا تنكرون ما أنزل من كتب على غيره من النبيين ، فلو أن ذلك الإنكار كان من أهل الكتاب لكان لهم عذرهم ، جسدا وخوفا على منزلتهم ، أما أنتم فإنكاركم لهذا الكتاب وحده أعجب العجب . ولعلك تشم رائحة التخصيص هذه جلية في تقديم الحديث عما أنزل على موسى وقرنه بما أنزل على محمد ، فكان التقديم لما أنكروه ملحا إلى أن منزل الكتابين هو الله ، والمنزل عليهما رسولان ، فكيف يُخصرُ بالإنكار ما أنزل على محمد ؟ وهذا من قبيل القصر الإضافي لزيادة التشنيع على المشركين ولإبراز التناقض النفسي والفكري .

ولا يخفى عليك جمال اللسق في الآيات حيث تتجاوب أطراف النظم ،

(١) سورة الانبياء آية ٤٨ - ٥٠

فيأتي التقديم في فاصلة الآية السابقة « وهم من الساعة مشفقون » ، جسدا
 انشغال المؤمنين بها ، وداوم ذكركم لها ، فهي ماء نفوسهم وقلوبهم ، لا تضيق
 عنهم طرفة عين ، حتى لكانهم لا يخشون سواها بما تمتلئ به أذهان الناس
 ويشغلهم عن الآخرة والعمل لها . فقل إن شئت هو قصر مجازي يقصر فيه
 الخوف على الساعة وأهوالها ، واعتبار كل خوف لسواها كلا خوف . وهذا
 ما يذهب به القول بأن التقديم لتناسب الفواصل .

من زيادة التشنيع على غرار قوله « أفأنتم له منكرون » قوله عز وجل :
 « قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله
 أذن لكم أم على الله تفترون (١) » ، حيث قدم المجرور على الفعل « تفترون »
 لجعل اقترانهم على غير الله تعالى عدما بالقياس إلى اقترانهم على ربهم . يقول
 أبو السعود : (فأظهر الاسم الجليل ، وودم على الفعل ، دلالة على كمال قبح
 اقترانهم ، وتأكيذا للتبكيك إثر تأكيد ، مع مراعاة الفواصل (٢)) .

وهذا كلام جيد يجمع بين المضمون والشكل ، فيكشف عن الغرض
 المهنوي المتمثل في إبراز كمال قبحهم حين يخصون الله بالاقتران ، ويضم إليه
 جمال التناسب في المقاطع .

وما تقدم فيه القيد لتفطيع الفعل والتشنيع على فاعله قوله تعالى : « وإن
 الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم بتغامزون (٣) »
 فالسخرية أمر عمقوت في ذاته ، وحين تكون السخرية بمن شأنه الإجلال
 والتوقير فإنها تكون أشد مقمقا ، وتخصيصها بالمؤمنين الداعين إلى الخير ،
 الساعين في استنقاذ المستهزى من إهلاك نفسه وإلقائها في النار أشد
 وأفظع ، فقد كان المجرمون الساخرون بالمؤمنين يلفون قرناءهم من المشركين
 بالتوقير والإكبار ، على ما يلبح إليه التقديم الذي جراه النظم الحكيم في

(٢) تفسير أبي السعود ٦/٧١

(١) سورة يونس آية ٥٩

(٣) سورة المطففين ٢٩ - ٣٠

في توعدده للمستهزئين ، وتهديدهم بيوم يخصهم فيه المؤمنون بالاستهزاء .
« فالיום الذين آمنوا من الكفار بضحكون على الأرائك بنظرون » .

إنه القصاص العادل حين يسخر المؤمنون من هؤلاء الذين جعلهم في الدنيا مادة تفسدهم ، ولما كان شأن المؤمن ألا يسخر من أحد فإن الله تعالى جعل سخرتهم خاصة هؤلاء المجرمين جزاء وفاقا . وفي تقديم الحال « على الأرائك » ، لإلماح إلى أن نظرهم نظر سعادة ورضا بما من الله تعالى عليهم .

وبما جاء التقديم فيه دالا على كمال القبح والتشليح على من يعدلون بربههم .
« ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، قوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربههم يعدلون (١) » ، فأظهر في مقام الإضمار ، وآثر وصف الرب بما يدل عليه من كمال الرحمة والرأفة ، وقدم على الفعل ليدل على شناعة ما ارتكبه الكافرون ، لما أن الشأن في طبائع الناس وعاداتهم ألا يسووا بين أربابهم وغيرهم ، حتى قيل إن كل فتاة بأبيها معجبة ، فهي لا تعدل به سواه ، فكيف وإنه تعالى فوق ذلك هو الخالق الرحيم بخلقه ؟ ألا ترى كيف دل الإنكار بهذا التقديم منذ البداية أن الله تعالى خصوصا ما كان ينبغي أن يقرب به سواه ، وأن هذه المساواة وإن كانت فظيعة في ذاتها فإن إيقاعها على ربه خصوصا أظع وأشنع ؟ حاول أن تقارن بين ما عليه النظم وبين أن تقول : ثم الذين كفروا يعدلون بربههم ، لترى أن تسليط الإنكار على الفعل يذهب إنكارا أشد حين يكون المعدول به خصوص ذات الباري . لعنا لم نبعث كثيرا عما ذكره القاسمي . (ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشليح والتقييح والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمساورة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد والحفاظة على الفواصل (٢) م .

(١) سورة الانعام آية ١

(٢) محاسن التأويل ٢٣٣٩/٦

من التقديم للتهديد وإدخال الروع في قلوب المكذبين قوله تعالى :
«خذوه فغلوه ثم الجحتم صلوه ثم في سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه» (١)،
حيث قدم المفعول «الجحيم» وهي نار عظيمة ، ليكون أول ما يفجأ
السمع ، ويشير الروع في قلوب الطغاة والمستكبرين ، فاجتمع لهذا التقديم
المبادرة بذكر ما هو أشد العذاب لإدخال الروع في القلوب ، وجعل
تصليتهم فيها خاصة ، ليقطع عليهم الرجاء في أن يخفف عنهم من عذابها في
منازل أخرى من النار .

ثم جاء المسلوب فيه وهو السلسلة ، مضيا مع هذه الغاية من التخويف
والتهديد ، لأنها أشد وأقسى ما ينزل به الكفار ، وكأنه يقول لهم لا تغلوه
في غير هذا النوع الفظيع من السلاسل . وذلك ما أشار إليه جار الله
الزمخشري : (ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطانا
يتعظم على الناس ، ... والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم
الجحيم على التسمية ، أى لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من
سائر مواضع الإرهاق (١)) .

هذا التخصيص الذى يملأ الجوانح رعبا لم يرتضه صاحب المثل السائر
غرضا للتقديم ، وجعله متمحضا للفضيلة السجعية على حد تعبيره . يقول :
(فإن تقديم الجحيم على التسمية ، وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل ،
إلا أنه لم يكن هاهنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السجعية ، ولا راء في
أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل : خذوه فغلوه ، ثم
صلوه الجحيم فإن قلت : إنما قدم الجحيم للاختصاص ، لأنها نار عظيمة ،
لو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيدا ، وزيدا

ضربت ، وقد تقدم الكلام على ذلك . فالجواب عن ذلك أن الدرك
الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم على
ما ذهب إليه ، لأنه أعظم (١) .

وقد كفانا صاحب الفلك الدائر عناء الرد عليه . فقال : (إن كان تقديم
المعقول يقتضى الاختصاص كما قد قال قوم ، فلا مانع أن يكون الاختصاص
مراداً في قوله : « ثم الجحيم صلوه ، لأن الجحيم والجحيم في اللغة هو أشد
النار . قال أبو تمام :

إن يَهْزُ من حرها عدو الظليم فقد

أوسعت جاحها من كثرة الحطب

ولا منافاة بين أن يراد الاختصاص ، وتراد الفضيلة السجعية (٢) .

ومنه قوله تعالى : « إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن
إلينا إياهم ثم إن علينا حسابهم (٣) » وقد نبه فيه الزمخشري إلى الغرض من
التخصيص بالتقديم ، فدل بذلك على أن التخصيص وسيلة من وسائل تحقيق
أغراض النظم ، وليس هو الغاية التي ينتهى عندها الباحث عن بلاغة الكلام
(فإن قلت : ما معنى تقديم الظرف ؟ قلت : معناه التشديد في الوعيد ، وأن
إياهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام (٤)) . فقد رفع القرآن نذر الوعيد
بهذا الحصر وما يبته في نفوس المنذرين من الفرع حين يعلنون أنهم
لا يستطيعون الهروب من الله تعالى ولا يلوذون إلى ملجأ يحميهم من
هقابه .

هذا التشديد في الوعيد كثيراً ما يصاحب تقديم القيود في النظم
القرآني ، وهو أكثر ما يكون في تقديم المجرور على متعلقه ، كما في قوله

(١) المثل السائر ٢/٢١٣

(٢) الفلك الدائر على المثل السائر ٤/٢٤٩

(٣) سورة الغاشية ٢٥ - ٢٦ (٤) الكشاف ٤/٢٤٨

تعالى : « أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١) ، فدل تقديم « بهم » على هذه المراقبة الدائمة لمن كفر به ، تمهيداً لأخذه بسوء فعله ، وكان الله تعالى قد تفرغ لمراقبته وخصه بها دون خلقه ، وفي ذلك ما فيه من الوعيد الذي ترتد له الفرائص ، وتنخلع له القلوب .

ومثله قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيقنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعد الله مغاماً كثيرة كذلك كنتم من قبل فنأ الله عليكم فتيقنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً (٢) » فكان تقديم « بما تعملون » تعرية لهؤلاء الذين يدفعهم حب الدنيا والحرص على الغنائم ، إلى سفك دماء من أعلنوا الإسلام ، مدعين أن دافعهم إلى ذلك خشية أن يكون إلقاءهم السلام خداعاً ، كيف والله يحيط بسرائرهم وهم لا يغيبون عن عينه !! إن هذا التقديم ليقرع القلوب قبل الأسراع ، بما يثيره من الإيحاء باختصاصهم بمراقبته ، وكأنهم وخدمهم أهل السوء من بين أهل الأرض جميعاً ، فهي مراقبة الغاضب المترقب ، لا مراقبة الراضى المصاحب .

وعليه جاء قوله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً (٣) » فكيف يظن المستخفي بخطاياهم أن يفلت من العقاب والمؤاخذة ، والله تعالى معه يرقب سكناته وحركاته ، ويخص أعماله بهذه الإحاطة التي لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة ؟ إن التقديم للجرور « بما يعملون » يتعاون مع الجملة الخالية « وهو معهم » - وهي معية مراقبة وتهديد لا معية مصاحبة وتأيد - فنشرجو من الرعب وتوقع الانتقام ، يتلاءم مع ما يوحى به التخصيص من

(٢) سورة النساء آية ٩٤

(١) سورة العاديات آية ٩ - ١١

(٣) سورة النساء ١٠٨

شدة المراقبة ، على معنى « سنفرغ لكم أيها الغفلان » وليس ذلك سوى تهديده بشدة الانتقام والتكثير بمن لا يرعوى عن محادة الله وعصيانه .

التنبية على خطر المقدم :

إذا أردت أن ترى كيف يسبغ القرآن على المقدم في سياقه ما يبرز أهميته ، ويلفت النظر إلى عظيم أثره في حياة الناس ، مما يتوارى معه كل أثر سواه ، فهذا قوله تعالى في حديثه عن خلق الأنعام وتسخيرها لمنفعة الإنسان : « والأنعام خلقها لكم فيها دفر ومنافع ومنها تأكلون (١) » ، فجعلها وحدها قوام حياة الناس ، ومنها وحدها يقتاتون . وفي مقابله وفي مجال التنويه بشأن ما يخرج الله تعالى من نبات الأرض نجد قوله عز وجل : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٢) » ، وفيه حصر ما يأكله الإنسان فيما تجرجه الأرض من زروع . فأنت ترى الأكل محصوراً في الأنعام في موضع ، ثم تراه محصوراً في الحب في موضع آخر . فكيف تناول المفسرون سر التقديم في الآيتين ؟

يقول البيضاوى في تفسيره للآية الأولى : (وتقدم الظرف للحفاظ على رؤوس الآى ، أو لأن الأكل منها هو المعتمد المعتمد عليه في المعاش (٣)) .

ويقول في الآية الثانية : (قدم الصلة للدلالة على أن الحب معتمد ما يؤكل ويعاش به (٤)) .

وهكذا يجعل التقديم في الآيتين مفيداً للتخصيص ، ويفسره تفسيراً واحداً ، يذهب في كل منهما إلى أنه هو الأصل المعتمد عليه في المعاش ، ولعل ابتداه بالمحافظة على رؤوس الآى يوحى بميله إلى أنه الغرض الأصيل

(٢) سورة يس آية ٢٣

(٤) السابق ٧/٢٤٠

(١) - سورة النحل آية ٦

(٣) تفسير البيضاوى ٥/٣١٢

فى التقدفم . أما الدلالة على التخصفص فقد استمدتها من الزمخشرى .

وبالرجوع إلى الكشاف نجده فذكر فى الآفة الأولى وجهفن فى تفسير القصر . الأول : قصر إضافى على سبفيل التجوز ، بفجعل الأكل من الأنعام فى مقابلة الأكل من الطفور والأسماك لعدم الاعتداد بها ، والثانى : ففسره بما فدل على القصر الحقفق الفتحقفق فقول : (فإن قلت . تقدفم الظرف فى قوله « ومنها تأكلون » مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من ففرها ، قلت الأكل منها هو الأصل الذى فعمده الناس فى معاشهم . وأما الأكل من ففرها من الدجاج والبطوفد البر والبحر ، فكفغير المعتدُّ به ، وكالجارى فجرى الفسفك . ففحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم فحرون بالقر ، فالحب والفار التى تأكلونها منها ، وتكففسون فاكراء الإبل ، وففبعون ففاجها وألبانها وولودها (١) .

وفى الآفة الثانية ففسر التخصفص بما فدل على القصر الحقفق على سبفيل التجوز ، ففقول : (تقدفم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشىء الذى ففعلق به معظم العفش ، وففقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسان ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر ، وإذا ففقد جاء الهلاك ونزل البلاء (٢)) .

لفس ففما ففسر به الزمخشرى الاختصاص فى الآففن فناقض ، لأن السفاق فى الآففن كان ففطلب المبالغة فى عدم الاعتداد بما سوى المقدم ففبفها على على خطره وبالفغ أثره فى ففاة المخاطبفن . فقد جاءت الآفة الأولى فى سفاق الحدفث عما سخره الله فعالى من الففوان لمنفعة الإنسان ، سواء منها ما فسده حاجته من الأكل وما ففلففع به فى الففقل ، ففاه حصر الأكل فى الأنعام كما جاء حصر الفدف ففها ففبفها على أهمفئها المبالغة وعظم أثرها : « والأنعام ففلقها لكم ففها فدف . ومنافع ومنها تأكلون ولكم ففها ففكال ففن فزفمون

(١) الكشاف ٢/٤١٠

(٢) الكشاف ٣/٢٢٠

وحين تسرحون وتحمل أنفالكُم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأفس
إن ربكم لرهوف رحيم (١) .

أما الآية الثانية فقد جاءت في معرض التدليل على قدرة الله تعالى في
الإحياء والإماتة ، وتوجيه نظر الإنسان المستبعد للإعادة بعد الموت ، إلى
نموذج مائل أمام عينيه يحى فيه الله الأرض الميتة ، ويخرج منها ما تقوم عليه
حياة الناس ، ولو أنها أمسكت ما في بطنها من النبات لهلك هؤلاء المكابرين
جوعاً ، ألا ترى إلى سياق الآيات ، كيف يربط الله فيه بين موت الإنسان
وبعثه ، وبين موت الأرض وإحيائها ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون
أنهم إليهم لا يرجعون وإن كل لما جميع محضرون وآية لهم الأرض الميتة
أحييناها وأخرجنا منها حيا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب
وفجرنا فيها من العيون لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٢) .

إن هذا النموذج للإحياء بعد الموت الذى صدره الله تعالى بقوله :
« وآية لهم » ليصل إلى كالة حين يتحول الميت إلى مرحلة من الحياة يكون فيها
هو المصدر الأصيل لحياة الإنسان ، حتى ليعد ما سواه من مصادر معاشه في
حكم المعلوم الذى لا تتأثر به هذه الحياة هذا إلى أنه يمكن عده من القصر
الحقيقى التحقيقى ، إذا اعتبرنا أن الأنعام ثمرة هذا النبات لاعتمادها عليه
في غذائها . فلا يحقق هذا الغرض من الكشف عن كمال هذه النعمة وعظم أثرها
المستوجب لشكر المنعم إلا هذا التقديم ، فإذا صاحبه جمال الإيقاع في موسيقى
الفواصل يكون قد اجتمع له الحسن من جميع أطرافه .

التقديم للترغيب :

كما تقدم فيه الظرف في مجال الحث على العمل الصالح والترغيب فيه قوله

تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم (١) » ، قدم الظرف « به » ، على صفة العلم ، تنبيها على أن الله يضع ما يقدمه الإنسان لربه موضعا متميزا يرقب معه نوايا المنفقين ، وطيب أنفسهم بما قدموا ، استئثارا لطاقت الخير في أنفسهم ، وحبسا لهم على تخير أطيب ما لديهم ليضعوا في يد الله من الصدقات ما هو أهل له ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ولعل هذا هو السر أيضا في تقديم المجرور من قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون (٢) » . لقد دار جدل طويل حول تقديم « مما رزقناهم » على فعله ، بين قائل بالتخصيص ، وآخر يقول بالاهتمام . وقد سبق أن قلت : إن التخصيص ضرب من الاهتمام وليس مقابلا له ، وهذا ما يتضح من كلام الزمخشري : (وقد قدم مفعوله الفعل (٣) ، دلالة على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به (٤)) فالاختصاص دليل الاهتمام ، وليس مقابلا له في نظر الزمخشري ، وقد رفض كثير من المفسرين أن يكون التقديم دالا على الاختصاص ، معالين ذلك بأن كل ما ينفقه العبد هو مما رزقه الله ، فلا مجال فيه للتخصيص ، واكتفوا بأن يكون الغرض هو مجرد الاعتناء بشأن المقدم . يقول صاحب التحرير والتنوير : (وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو « ينفقون » ، لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس ، فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس ، كقوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه » ، مع رعى فواصل الآيات على حرف النون (٥)) .

(١) سورة آل عمران آية ٩٢ (٢) سورة البقرة آية ٢
 (٣) يقصد الجار والمجرور لانه مفعول في المعنى .
 (٤) الكشاف ١/١٣٢ (٥) التحرير والتنوير ١/٢٣٦

أدري أن التخصيص الذى قال به الزمخشري لم يفهم على وجهه ، وأن الذين رفضوه لم يتبينوا مارى إليه من الدعوة إلى تخير الطيب الأجود من هذا الرزق . فالزمخشري من القائلين بأن الرزق هو المال الحلال ، على خلاف ما يقول به أهل السنة من أنه لا رازق إلا الله ، فجميع ما يبد العبد حلالا أو حراما هو من رزق الله : يدل على ذلك قوله : (وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقا (١)) .

إذا كان مارزقهم الله هو حلالا طلقا فاخصاص بعضه للإتفاق منه ، ذاهب إلى أن هؤلاء المؤمنين يتخيرون أطيب ما بأيديهم وأجوده ، فيخصونه بالإتفاق ، حرصا منهم على نيل البر بالإتفاق بما يحبون ، وفى ذلك من الترغيب فى إتفاق الجيد ما فيه .

التقديم للتعريض :

بما تقدم فيه المعمول للتعريض قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٢) » ، وهو وجه كان الزمخشري أول من قال به لتصحيح مذهبه فى دلالة التقديم على التخصيص ، لأن تخصيص مؤمنى هذه الأمة بالإيمان بالآخرة ، يناقضه ما هو ثابت من أن أهل الكتاب يؤمنون بها كذلك ، فكان لابد من تفسير لإخراجهم من دائرة المؤمنين بالآخرة ، واختصاص المسلمين بهذا الإيمان ، فكان جوابه : (وفى تقديم الآخرة ، وبناء « يوقنون » على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك (٣)) .

(٢) سورة البقرة آية ٤

(١) الكشاف ١/١٣٤

(٣) الكشاف ١/١٣٧

العدول عن التعبير بالإيمان إلى الإيقان هو الذي أوحى إلى الزمخشري
بفكرته عن التعريض، فالإيمان : الثقة ، وإظهار الخضوع وقبول الشريعة(١)
والإيقان : العلم بالشئ وتحققه(٢) فأهل الكتاب أظهروا الخضوع وعلوا
بالآخرة ، ولكنهم لم يصلوا إلى مرحلة اليقين والتحقق مما علموه ، فكان
إيمانهم على ألسنتهم أكثر مما هو في قلوبهم ، فلو أن إيمانهم هذا كان عن
قناعة وحقق لهداهم إلى الإيمان برسول الله جميعاً ، ولما فرقوا بين كتب
الله ورسله .

لقد كان حس الزمخشري مرهفاً ، وتسمعه لمس الكلمات دقيقاً ،
وعينه بلع إشارات السياق بصيرة ، فقد وقع قبل هذه الفاصلة ما يوطئه لهذا
التعريض بأهل الكتاب ، وهو قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك ، فإن فيه راحة تعريض بإيمان أهل الكتاب الذين لم
يؤمنوا بما أنزل إليه ، فكان إيمانهم بالآخرة إيمانا مشوها يلتبس فيه الحق
بالباطل ، فلم يعتد القرآن بهذا الإيمان ، لأنه ليس يقينا . إنه قصر مجازي
يلشر جواً من المبالغة في عدم الاعتداد بإيمان لا ينبجى صاحبه حتى يحيله
عدما محضاً .

إن هذا المعنى المتوهج يطفئه ما عمل به المفسرون التقديم من مثل قول
أبي حيان : (وقدوم المجرور اعتناء به ، ولتطابق الأواخر(٣) .
على غرار هذه الآية جاء قوله تعالى فيما أمر المؤمنين أن يقولوه رداً
على قول أهل الكتاب : « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا(٤) » ، « صبغة
الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا
وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون(٥) » .

(١) للقاموس المحيط مادة أمن .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٢

(٣) السابق مادة يقن .

(٤) سورة البقرة ١٣٨ - ١٣٩

(٥) سورة البقرة آية ١٣٥

فقدم المؤمنون في جوابهم المجرور « له » في الفاصلتين ، إشعاراً بأن عبادتهم لربهم عبادة خالصة من شوائب الشرك ، وإخلاصهم لربهم لا تكدره عقائد فاسدة من مثل قول اليهود « عزيزا بن الله » وقول النصارى « المسيح ابن الله » فكان حصر عبادتهم وإخلاصهم في ربهم تعريضا بأهل الكتاب الذين يخلطون عبادتهم ودعواهم بالإخلاص بما يبطلها من أسباب الشرك .
ومن خفي مواقع التعريض ، وهو ما جعله ابن الصائغ دليلا على مخالفة الأصل (١) لتحقيق السجع ، قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٢) » وقوله : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزينا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون (٣) » .

فتقدم المفعول « إياكم » في سؤال الله تعالى من الآية الأولى ، و « إيانا » في جواب الشركاء على فعل العبادة ، وكان الظاهر أن يقال : أهؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ وما كنتم تعبدوننا ، لأن نفي تخصيص العبادة لا ينفي أصلها ، واستنكار الله تعالى ، وكفرهم ، كان بالعبادة لا بتخصيصها ، وهذا هو الذي دفع ابن الصائغ وغيره إلى جعل التقديم للفاصلة .

لكننا حين نقرأ جواب الملائكة : « بل كانوا يعبدون الجن » أكثرهم بهم مؤمنون ، يظهر لنا سر التقديم وما صحبه من الاختصاص ، وهو أنهم لم يعبدوهم عن قناعة وفهم ، بل إنهم كانوا يستجيبون في عبادتهم لأهوائهم وماتوسوس لهم به شياطينهم ، فهو ضرب من التعريض بكذبهم في دعواهم عبادة الملائكة ، وإنما كانوا يعبدون من أغوهم ، وهم مأمورون منهم بعبادة الملائكة ، خاضعون لسلطان شياطينهم ، فهم المعبودون بحق عندهم ، وهذا مانبه إليه قول الزمخشري : (إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم

(٢) سورة سبأ آية ٤٠

(١) الإنفان ٢/٩٩

(٣) سورة يونس آية ٢٨

أَنْ تَتَّخِذُوا اللَّهَ أَنْدَادًا فَاطْعَمْتَهُمْ (١) .

وإنك لتلح في تقرير الله تعالى للبلائكة والشركاء المعبودين من دونه نذر الغضب والانتقام ، حين يعد هؤلاء الشركاء المعبودون عبادة المشركين لهم كإعبادة ، لأنهم انطلقوا فيها من شياطينهم وأهوائهم ، فكيف يقبل الله تعالى عبادة رفض قبولها الملائكة والأصنام ١١٩ إنها صورة الشرك القبيحة الشائنة ترسمها الكلمات المعبرة عن معانيها بدقة في مواضعها من النظم الحكيم .

ومن التعريض بالمكذبين الذين أنكروا البعث ، والنعى على عقولهم قوله تعالى : « فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على روجه لقادر (٢) ، لما كان المستبعد بالنسبة إلى المخاطبين هو إعادة الخلق لا بدوه ، لأن تكرار الخلق أمام أعينهم صيره عادة خفي معها عظيم الصنع لتعمم القرآن إلى النظر في مادة الخلق ، وهي أبعد ما تكون عما استحالت إليه في صورة إنسان بديع الخلق ، منبها إلى أن من شأنه أن يقدر على هذا البديع هو على مادونه من الإعادة أقدر في حكم العقل ، فكان تقديم « على روجه » بما تضمنه من التخصيص نعيًا على عقول المشركين المستبعدة للإعبادة خصوصًا ، مع إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم ، وفي ذلك من التعريض بعقولهم التي لم تدرك مثل هذه البدهيات التي لا تخفى على من لديه أدنى تعقل ما فيه .

الدلالة على كمال الاستغراق :

قال تعالى في وصف أهل الجنة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة (٣) »
تقدم المحرور « إلى ربها » ليدل على كمال اللذة في نظر المؤمنين إلى ربهم ،

(٢) سورة الطارق آية ٥ - ٨

(١) الكشاف ٢/٢٣٥

(٣) سورة القيامة آية ٢٢ - ٢٣

واستغراقهم في أنواره ، ودرغبتهم عن التحول إلى سواه ، وهو ما تشيحه دلالة التخصيص من قصر نظرهم على ربهم ، وهو لون من القصر المجازي الذي ينزل فيه النظر إلى غير الله من ألوان النعيم في الجنة منزلة للمعنوم بالمقياس إلى جلال ربهم الذي يستغرق الأنظار فلا ترى مادونه ، إن أعظم ما يتمناه المؤمن في الجنة هو أن يرى ربه ، فإذا ما أنعم الله عليه بذلك عد كل ما رآه وبه غير شيء ؛ وانظر كيف يتعاقب هذا التخصيص مع التعبير عن الله بلفظ الرب وما ينشره على النظم من معاني الرضا وجمال الأنس .

إن تعليل المفسرين للتخصيص هنا باعتبار تقييده بوقت النظر ، لا في كل الأحوال (١) ، لا يعدو أن يكون تعليل صناعة يقصد به تصحيح صورة القصر ، حتى لا يقال : إن المؤمنين ينظرون في الجنة إلى أشياء كثيرة مما يسر العين ويمتعها ، فيجاب عليهم بأن هذا الحصر في لحظات النظر إلى الله لا في كل الأوقات وهو كما ترى يذهب بما كشفنا عنه من كمال الاستغراق في ذات الله ، وبما في القصر من التجوز بعدم الاعتداد بما سوى الله تعالى ، وذلك بما أجازه البلاغيون فيما يسمى بالقصر الادعائي .

والعجب مما قاله ابن الأثير وناقض فيه نفسه : (وقد استعمل تقديم الظرف في القرآن كثيرا ، كقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة » ، أي تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص وإنما هو كالأذى أشرت إليه في تقديم المفعول ، وأنه لم يقدم للاختصاص ، وإنما قدم من أجل نظم الكلام (٢)) فهو يفسر التقديم بما يدل على الاختصاص ، وعبارته : « أي تنظر إلى ربها دون غيره » قاطعة في الدلالة عليه ، ثم يعود فينتفي صراحة أن يكون التقديم للاختصاص ، وإنما هو للحفاظ على السجع ، وكأن القول بالتخصيص يناقض ما يهدف إليه النظم الحكيم من الجمع بين تناسب المعاني وتناسب الألفاظ .

إن إعجاز القرآن يتجلى في هذه الموازنة الدقيقة بين جملة الشكل والمضمون ، ليتحقق بها التناسب بين الفواصل ، في نفس الوقت الذي يتحقق فيه التناسب بين المعاني .

فإذا نظرت إلى جمال الموسيقى النابع من التوازن بين المقاطع وتوافقها في الروى ، خلت أن القرآن عهد إليه وتوخاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وبقا لشواهد المعاني وحركتها في الأذهان ، فمن أى جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز .

المراجع

- * الإلتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي
المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان ١٩٧٣ م .
- * أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري
د . محمد زغلول سلام ، دار المعارف - الطبعة الثانية ١٩٦١ م
- * الإعجاز البلاغي - دراسة تحليلية لثراث أهل العلم ، د . محمد محمد
أبو موسى - نشر مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .
- * الإعجاز البياني للقرآن ، د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي .
دار المعارف - الطبعة الثانية - بغير تاريخ .
- * إعجاز القرآن - أبو بكر محمد بن الطيب الأقلاني ت . السيد صفير
دار المعارف ١٩٦٣ م .
- * إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صاهق الرافعي
دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان بغير تاريخ .
- * الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - ناصر الدين ابن المنير
الإسكندرية - مصطفى الباني الحلبي - القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- * البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي ، دار الفكر للطبع والنشر - الطبعة
الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
- * بدائع الفوائد - ابن قيم الجوزية - توزيع دار الفكر للطباعة والنشر
بغير تاريخ .

• البرهان فى علوم القرآن - الامام بدر الدين الزركشى ، ت محمد
أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل - بيروت ١٩٨٨ م .

• البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري د . محمد محمد أبو موسى - مكتبة
وهبة - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

• البيان القرآنى د . محمد رجب البيوى

مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

• التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الدار التونسية - للنشر بغير تاريخ .

• تفسير أبى السعود - القاضى أبو السعود محمد بن محمد العمادى -

دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان - بغير تاريخ .

• التفسير البيانى للقرآن الكريم - الجزء الثانى د . عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطىء - دار المعارف - الطبعة الثالثة - بغير تاريخ .

• تفسير البيضاوى بمجاشية الشهاب - ناصر الدين بن عمر البيضاوى

دار صادر - بيروت بلا تاريخ .

• تفسير القرآن العظيم - الإمام ابن كثير الدمشقى - بلا تاريخ

نشر المكتبة التوفيقية - الحسين - القاهرة بلا تاريخ .

• تفسير الفخر الرازى - محمد الرازى نقر الدين

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة

الثالثة ١٩٨٥ م .

• تفسير القرطبى - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

دار الريان للتراث بلا تاريخ .

• تفسير المنار - السيد محمد رشيد رضا

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

* حاشية السيد الشريف هلى الكشاف - السيد الشريف الجرجاني

مصطفى البابى الحلبي - القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

* حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى - شهاب الدين الخفاجى

دار صادر - بيروت - بلا تاريخ

* درة التنزيل وغرة التأويل - الخطيب الإسكفاني

دار الآفاق الحديثة - بيروت - بلا تاريخ

* دلائل الإعجاز - الإمام عبدالقاهر الجرجاني ت محمود شاكر

نشر مكتبة الخالجي بالقاهرة - بلا تاريخ

* روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم - شهاب الدين الألوسى البغدادى

دار إحياء التراث العربى - بيروت ١٤٥ هـ - ١٩٨٥ م

* سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - شرح وتصحيح عبد المتعال

الصعدي ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ميدان الأزهر - القاهرة

١٩٦٩ م

* الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية - زعمها أبو بكر

محمد الرازق - المكتبة الثقافى للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى

١٩٩٠ م

* صور البديع - فن الأسجاع - هلى الجندى

دار الفكر العربى - القاهرة - بلا تاريخ

* الفاصلة القرآنية - محمد الخطيب

المكتب الإسلامى - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م

* الفنونحات اللطيفة - سليمان بن عمر العميرى

مطبعة عيسى البابى الحلبي - بلا تاريخ ١٩٧٠ م

- الفيلك الدائر على المثل السائر — ابن أبي الجديد
مكتبة نهضة مصر — الفيحالة بلا تاريخ .
- القاموس المحيط — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
مكتبة تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٧ م .
- الكتاب — سيوريه : أبو بشر عمرو بن عثمان
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .
- المكشاف — جار الله الزنجشيري
مصطفى الباني الحلبي ، القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .
- لباب التأويل في معاني التنزيل — الخازن
دار المعرفة للطباعة والشريروت — بلا تاريخ .
- لسان العرب — ابن منظور نخبة من العاملين بدار المعارف
دار المعارف ، القاهرة — بلا تاريخ .
- المثل السائر — ضياء الدين ابن الأثير د . أحمد الحوق ، وبدوى
طباعة ، مكتبة نهضة مصر ، الفيحالة — بلا تاريخ .
- محاسن التأويل — محمد جمال الدين القاسمي
دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الباني الحلبي ط ١ — ١٩٥٨ م .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي
المجلس العلمي بطنس ١٣٩٤ — ١٩٧٤ م .
- مسائل الرازي وأجوبتها — محمد أبو بكر الرازي ، ت إبراهيم عطوة
مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي ط ١ ، ١٩٦٠ م .
- معاني القرآن عند أبو بكر الفراء — الجزء الثالث
د . د . عبد الفتاح شلبي ، الأستاذ على الجندي ناظر — الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

- المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني ت . محمد سيد كيلاني
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٦١ م .
- من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوي
دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الفجالة ، بلا تاريخ .
- نتائج الفكر في النحو - أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السهيلي
ت د . محمد البغا - دار الرياض للنشر والتوزيع بلا تاريخ .
- نقد الشعر - أبو الفرج قدامة بن جعفر ، ت د . عبد المنعم خفاجي
مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

الترتيب بين المتعاطفات ص ٢٠ - ٢٧

١٠	تقديم الأرض على السموات
١٥	تقديم هارون على موسى
١٩	تقديم العبادة على الاستعانة
٢٢	تقديم الآخرة على الأولى
٢٥	تقديم صحف موسى على صحف إبراهيم
٢٧	تقديم البطون على الجلود
٢٨	تقديم الإناث على الذكور وعكسه
٣١	تقديم الشق على السعيد
٣٢	تقديم الفجور على التقوى
٣٣	تقديم المشى على الإبتكار وعكسه
٣٤	تقديم الأعمى والظلمات والظل

الترتيب بين الصفات ص ٣٨ - ٥٧

٢٨	تقديم الرحمن على الرحيم
٤٠	تقديم الرؤوف على الرحيم
٤٣	تقديم السميع على العليم

الصفحة	الموضوع
٤٤	تقديم الشاكر على العليم
١٦	تقديم العليم على الحكيم وعكسه
٤٧	تقديم الرحيم على الغفور وعكسه
٥١	تقديم الرسول على النبي
٥٤	تقديم العلي على السكبير
٥٦	تقديم الحفيظ على العليم
٥٦	تقديم مكين على أمين

تقديم القيود ص ٥٨ - ٨٠

٥٨	بين التخصيص والاهتمام
٦٢	أغراض التقديم في القيود
٦٣	زيادة التقرير
٦٨	التشديد في الوعيد
٧١	التنبه على خطر المقدم
٧٣	التقديم للترغيب
٧٥	التقديم للتعريض
٧٨	الدلالة على كمال الاستغراق
٨١	المراجع

رقم الإبداع ١٩٩٤/٣٢٦٧

بتاريخ ١٩٩٤/١/٢

٤٧

٥٠

٦٠